المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم العالي
جامعة أم القرى
الكلية الجامعية بالقنفذة

مقرر

أدب أندلسي (٥٠ـ٢٨٠٢٣٨٥)

لطلاب برنامج الانتساب

الفصل الجامعي الأول ١٤٣٩هـ

تدريس المقرر

الدكتور/إبراهيم محمد عبد الرحمن

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي تتم بنعمته الصالحات، والصلاة والسلام على خير البريات، محمد الذي جاءنا بالذكر والآيات، وعلى آله وصحبه أولي الفضل والخيرات، ومن تبعهم وسار على نهجهم من البريات.

وبعد:

فهذه دروس في (الأدب الأندلسي) نقدمها لطلاب برنامج الانتساب، راجين الله أن ينتفعوا بها، وتتناول هذه الدروس:

- تعريف موجز بالأندلس والعصور التي عاشها المسلمون.
- مظاهر الحركة الأدبيّة منذ الفتح الإسلاميّ ٩٢هـ حتّى سقوط غرناطة ٨٩٧هـ، وعوامل نهضتها أو تراجعها عبر عصوره المختلفة (الأمويّون، ملوك الطّوائف، المرابطون، الموحّدون، بنو الأحمر)
- أبرز اعلام الشّعر الأندلسيّ ونماذج منتقاة من شعرهم
- (يحيى الغزال، ابن درّاج، ابن زيدون، ابن سهل، ابن زَمْرَك، إلخ...)
- شعر رثاء المدن (بوصفه من الفنون الّتي ارتبطت بالأندلس قبل المشرق) وأبرز أعلامه (ابن عبدون، ابن الأبّار، أبو البقاء الرّنديّ، وغيرهم)
- الموشّحات والأزجال (نشأتها، أبرز أعلامها، عروضها، خصائصها الفنّيّة)
- النّثر الفنّيّ (الرّسائل، المقامات، التّوقيعات) وأشهر أعلامه، ونماذج منتقاة من نثرهم: (ابن شُهيد، ابن حزم، أبو حفص ابن برد، ابن طُفيل، ابن شرف القيروانيّ، لسان الدّين ابن الخطيب، وغيرهم) .

والله نسأل التوفيق والسداد،،

١ — اسم الأندلس :

لم تُعرف شبه الجزيرة التى تشمل حالياً دولتى إسبانيا والبرتغال باسم الأندلس ، قبل أن تعرف المسلمين ، وإنما عرفت فى أقدم عصورها باسم إيبريا Iberia نسبة إلى الإيبريين Los Iberos الذين كانوا من أقدم من سكن هذه البلاد من البشر .

ثم عرفت شبه الجزيرة بعد ذلك باسم إسبانيا ، وهذا الاسم Hespania قد أطلقه الرومان على شبه الجزيرة حين حكموها ، وقد استنبطوه من تعبير فينيقى ، كان الفينيقيون قد أطلقوه من قبل على الشاطئ الذى نزلوا به من تلك البلاد ، حين اتصلوا ببعض جهاتها قبل الرومان ؛ وهذا التعبير الفينيقى i-schephan-im يعنى « شاطئ الأرانب » . ويقال فى تعليل ذلك : إن الفينيقيين قد صادفوا كثيراً من الأرانب على الشاطئ الإيبرى الذى نزلوا به[١].

كذلك كان الجزء الجنوبى من إسبانيا يسمى باسم « بتيكا » Betica وكان ذلك فى العهد الرومانى ، ثم سمى باسم « قندليسيا » Vandalisia حين سكنه الوندال بعد الرومان على ما سنوضح فيما بعد .

فلما جاء المسلمون بعد ذلك أطلقوا على شبه الجزيرة جميعاً اسم الأندلس ، وظل مؤرخوهم وجغرافيوهم وسائر علمائهم وأدبائهم يستعملون هذه التسمية ويفضلونها حين يريدون شبه الجزيرة الإيبرية .

وأرجح الآراء أن هذا الاسم قد أخذه المسلمون من « وندلس » Vandalos[٢] ، وهو اسم لبعض القبائل الأوربية الشمالية ، التى أغارت فى أوائل القرن الخامس الميلادى

---

(١) Aguado Bleye : Historia de Espana, p. 53.

(٢) Levi Provençal : Espana musulmana, p. 44.

على ممتلكات الرومان ، وكان هؤلاء الـ « وندلس » — أو كما تعود كثير من الباحثين تسميتهم بالوندال — قد وصلوا إلى جنوب إسبانيا وسموه باسم « ڤندليسيا »[1] نسبة إليهم . فلما جاء المسلمون فيما بعد وعرفوا ماكان من أمر الـ « وندلس » بتلك البلاد سموها « بلاد الأندلس » ، وكأنهم أضافوا تلك البلاد إلى هؤلاء الذين حكموها من قبل واشتهر أمرهم بها . وكل الذى فعله المسلمون من تغيير فى اسم « وندلس » هو همز الصوت الأول ، ومن هنا أصبحت الكلمة أندلس ، بدلا من وندلس .

ويمكن أن يقال : إن الكلمة مرت بمراحل صوتية ثلاث . الأولى « ڤندلس » كما تدل صورة الكلمة فى حروفها اللاتينية ، وكما يدل كذلك النطق الإسبانى للكلمة Vandalos. والمرحلة الثانية « وندلس » كما يدل عليها نطق الكثيرين للكلمة بالواو بدلا من « الفاء » المجهورة التى يرمز إليها عادة بالحرف « V » . وهذا ليس بغريب فى التطور الصوتى ؛ فكثير من الكلمات قد حدث له هذا التطور ، وبناء عليه أصبح ينطق الحرف المجهور «V» واواً لا فاء مجهورة كما يدل رسمه .

والتطور الأخير ، هو الذى أحدثه المسلمون حين قالوا : « أندلس » لا « فندلس » ولا « وندلس » وهو تطور مألوف أيضاً . فالهمزة تأتى أحياناً بدلا من الواو فى العربية ، مثل : وُجُوه وأُجُوه ، جمع وجه .

وقد بقى اسم « الأندلس » الذى أطلقه المسلمون على شبه الجزيرة ، ولم يخرج بخروجهم ، ولكنه قد أصاب شيئاً من التطور فى لفظه ، وشيئاً من التطور كذلك فى معناه. أما اللفظ فقد أصبح فى اللغة الإسبانية « أنْدَلُثْيَا Andalucia » بدلا من أندلس . وأما المعنى فقد صار جنوب شبه الجزيرة فقط ، بعد أن كان شبه الجزيرة جميعاً .

والأقاليم التى يشملها اسم « أندلثيا » الآن فى إسبانيا هى المريّة ، وغَرْنَاطة ،

---

(١) أو « وندليسيا » .

ومالَقَة ، وجَيّان ، وقُرْطبَة ، وإشبيليَة ، وقادس ، وأونَبة .[١] .

ولعل من المكمل لهذا الحديث أن نذكر أن بعض المؤرخين القدامى قد أوردوا تعليلات أخرى لتسمية شبه الجزيرة الإيبرية باسم الأندلس . فمن ذلك ما نقله المقرى عن ابن سعيد من أن تلك البلاد « سميت بالأندلس ابن طوبال بن يافث ابن نوح لأنه نزلها »[٢].

وليس يخفى ما فى رأى ابن سعيد من تعليل أسطورى أبعد ما يكون عن الحقيقة . ومن المؤرخين العرب القدامى الذين اهتدوا إلى التعليل العلمى الصحيح ، أحمد بن محمد الرازى الذى نقل عنه المقرى قوله « وأول من سكن بالأندلس على قديم الأيام . . . قوم يعرفون بالأندلش معجمة الشين ، بهم سمى المكان ، فعرب فيما بعد بالسين غير المعجمة »[٣]. فهذا تعليل يطابق أحدث التعليلات العلمية المبينة على أسس تاريخية ، وإن كان الرجل قد حسب أن هؤلاء الناس كانوا أول من سكن البلاد .

أما قوله : إن أصلها بالشين فسببه — فى رأيى — أن السين أو الحرف S ينطق كثيراً فى اللسان الإسبانى بين السين والشين ، لكن العرب ينطقونها سيناً خالصة . فكأن الإسبان كانوا ينطقون الكلمة ذات سين مشربة بالشين ، فلما جاء المسلمون نطقوا سينها واضحة لا أثر للشين فيها .

---

(١) هذه الأقاليم تسمى بالإسبانية على هذا النحو :

Almeria, Granada, Malaga, Jaen, Cordoba, Sevilla, Cadiz, Huelva.

ويلاحظ أن الحرف J الذى فى أول الكلمة Jaen ينطق خاء ، وهو كذلك دائماً فى اللغة الإسبانية . ويلاحظ أن الحرف Z الذى فى آخر الكلمة Cadiz ينطق ثاء وهو كذلك دائماً فى الإسبانية . كذلك يلاحظ أن الحرفين LL فى آخر الكلمة Sevilla ينطق أولهما لا ما ، والثانى ياء .

(٢) المقرى : نفح الطيب ج ١ ص ٦٣ .

(٣) المقرى : نفح الطيب ج ١ ص ٦٦ .

وشبيه بالتعليل الأسطورى الذى ذكره ابن سعيد لإطلاق كلمة الأندلس على شبه الجزيرة ، ما ذكره بعض المؤرخين القدامى فى سبب إطلاق كلمة إسبانيا على تلك البلاد ؛ فقد ذكر أنها سميت بهذا الاسم لأن عجم رومة قد ملكوها ، وكان « ملكهم إشبان بن طيطش ، وباسمه سميت الأندلس إشبانية» [1] . فالصحيح أن الكلمة قد أطلقها الرومان على تلك البلاد ، ولكن لا أخذاً من اسم ملكهم إشبان الذى لا يعرف االتاريخ عنه شيئاً ، بل أخذاً من عبارة فينيقية معروفة كان الفينيقيون قد أطلقوهاعلى الشاطئ لإيبرى حين نزلوا به .

٢- العصور التي مرت بالمسلمين في الأندلس:

أولا : عصر الولاة ، وهو ذلك العصر الذى يبدأ بالفتح الإسلامى سنة ٩٣ هـ — ٧١٢ م وينتهى بقيام دولة بنى أمية فى الأندلس على يد عبد الرحمن الداخل سنة ١٣٨ هـ — ٧٥٥ م .

ويسمى هذا العصر عصر الولاة ؛ لكون الأندلس كانت تحكم فيه بوساطة وال يعينه خليفة دمشق وأحياناً يعينه حاكم شمال إفريقيا .

ثانياً : العصر الأموى ، ويبدأ بتأسيس عبد الرحمن الداخل لدولة بنى أمية فى الأندلس ، تلك الدولة التى تبلغ ذروة مجدها فى عهد عبد الرحمن الناصر الذى يجعل منها خلافة عظيمة . وينتهى هذا العصر بانتهاء ملك بنى أمية هناك ، بعد سلسلة من الخلفاء العاجزين ، واختيار زعماء قرطبة لنوع من الحكم الجمهورى سنة ٤٢٢ هـ — ١٠٣١ م .

ثالثاً : عصر ملوك الطوائف ، ويبدأ بسقوط الدولة الأموية وقيام عدة ممالك مستقلة ، تقسمت الأندلس معها إلى طوائف ، وعلى كل طائفة مُليك . وينتهى هذا العصر باستيلاء المرابطين على الأندلس بقيادة يوسف بن تاشفين سنة ٤٩٣ هـ — ١٠٩١ م .

رابعاً : عصر المرابطين ، ويبدأ باستيلاء ابن تاشفين وجيوشه الإفريقية على الأندلس ، وينتهى بحلول الموحدين محل هؤلاء المرابطين فى حكم إسبانيا الإسلامية سنة ٥٤١ هـ — ١١٤٦ م .

خامساً : عصر الموحدين : ويبدأ بحكم هؤلاء الإفريقيين للأندلس ، وينتهى بسقوط دولتهم ، وانتزاع المسيحيين الإسبان للكثرة الغالبة من الأقاليم التى كانت فى أيدى المسلمين ، وحصر الدولة الإسلامية الأندلسية فى جزء جنوبى صغير هو مملكة غرناطة وذلك نحو سنة ٦٦٨ هـ — ١٢٦٩ م .

سادساً : العصر الغرناطى . ويبدأ بتأسيس مملكة غرناطة على يد ابن الأحمر ، وينتهى بتسليم هذه المدينة الإسلامية إلى الإسبان ، سنة ٨٩٨ هـ — ١٤٩٢ م .

٣- الأدب العربي فى عصر الأندلسي

أقام العرب فى ربوع الأندلس نحوًا من ثمانيّة قرون، فعرفوا فيها أرضًا جديدًا ومجتمعًا جديدًا وحيّاة جديدةً وظروفًا تختلف تمام الاختلاف عن الظروف التي كانت للمشارقة، فلم يكن بدّ من تأثّر الأدب الأندلسي بهذه الحياة الجديدة وبيئتها، فتَكَوَّنَت له خصائص مستمدة منها، ساعدت ظروف العصر على تبلورها واستتبابها. و لقد مرّ الأدب الأندلسى بثلاثة مراحل:

أوّلها كانت مرحلة تقليد صرف، نحا فيها الأندلسيون نحو المشارقة، والثانية كانت مرحلة انتقال، ظهرت فيها معالم تجديديّة لكنّ التقليد بقي مسيطرًا عليها. أمّا الثالثة فمرحلة تجديد، تحرّر فيها أدباء الأندلس من أهل الشرق ليبدعوا أدباً نابعًا من حياتهم.

المرحلة الأولى - مرحلة التقليد الصرف:

تمتدّ طيلة العهد الأموي وتستغرق نحوًا من ثلاثة قرون. مؤادها أن الشعراء والكتّاب الذين ظهروا فى هذه الفترة كانوا شديدي الصلّة بأرض المشرق الّتي انطلقوا منها بينهم الحجازي، واليمنى، والشامي، والعراقي، وكلّهم كانوا يحنون إلى الربوع الّتي فارقوها. فإذا الشعراء الأولّون يتّغنون بأرض نجد وبلاد الشام واليمن وينظمون شعرهم على النحو ما كان أهل الشرق ينظمونه. ولقد ظهر التقليد فى كلّ شيءٍ، فى المعاني والأساليب والأخيلة والصور والموضوعات وراج المديح والهجاء والرثاء والغزل والخمريّات.

فلمّا ظهر الجيل الثاني ترسم شعراؤه خطوات سلفهم لأنّهم كانوا شديدي التأثر بهم ولم تكن الفترة الزمنيّة كافيّة لأنّ تجعلهم يذوبون فى البيئة الجديدة، فقد ظلوا يحسون أنّهم غرباء، وظلّت صلتهم بالمشارقة وحنينهم إلى مساقط رؤوس آبائهم أشد. فإذا بهم ينسجون على منوالهم فى الأوزان والأغراض والمعاني والأساليب لكنّهم يقصرون عنهم تقصير المقلّد عن المبدع. نرى ذلك فى شعر ابن عبد ربه و ابن هانئ و ابن شهيد و ابن درّاج القسطلى بحيث تقع على مطالع غزليّة تقليديّة ووصف للطلول وللناقة والثور والوحي والصحراء وخيام البدو وما الى ذالك.

وأنّه لمن مقتضيات ناموس التطوّر ألا يتجدد الأدب الأندلسي طفرةً واحدةً، ولكن ليس طبيعيّا أن يظلّ تقليديّا ثلاثة قرون تقريبًا، لولا أن شعراء الأندلس كانوا شديدي المحافظة على التقليد القديم، لشعورهم بالضعف حيّال المشارقة، ولكثرة ما اهتدى إليه شعراء المشرق من وجوه الإجادة والإبداع. ولسنا نلوم هؤلاء الأندلسيين إذا كانوا يحاولون تقليد أبي نواس

ومسلم بن الوليد وأبي تمام والبحتري وأبي الطيّب المتنبّي وسواهم من قمم الشعراء المشرقيين فى تلك الفترة من الزمن.

أماّ فى النثر، فإنّ الأندلسيين الأولين لم يكونوا متقدّمين على نحو ما كان كتّاب أواخر العصري الأموي، وأوائل العصر العبّاسي، فلم يعرف بينهم من كان له شأن عبد الحميد الكاتب ولا شأن ابن المقفّع أو الجاحظ أو سهل بن هارون. وأن أولّ أديب أندلسي بالمعنى الصحيح كان مشرقيّا هو أبو على القالي الذى استخدمه عبد الرحمن الناصر ليقوى به مملكته؛ إذ لم يجد فى بلاده معلمين كبارا قادرين على نشر الثقافة العربيّة بين أندلسي، فعمل أبو علي على ذلك، وقد ظلّ فى قرطبة يبث علمه حتى توفّى سنة ٣٥٨ هـ بعد أن أقام فى الربوع الأندلسية ثمانيّة وعشرين عامًا.

و قد عاصر أبا على فى أواخر أيّامه أديبٌ أندلسي مولد هو ابن عبد ربه. ألّف كتاب العقد الفريد، وهو على نسق الأمالي، لكنّه أوسع منه وأكثر عمقًا، نقل فيه إلى أهل الأندلسي معارف المشارقة. ولقد روى عنه الصاحب بن عباد - وهو أديب كبير من أدباء الشرق آنذاك ووزير من وزراء الدولة البويهيّة - أنّه لما وصل إليه كتاب العقد الفريد قال: هذه بضاعتنا ردّت إلينا. ومعنى ذلك أنّه كان ينتظر أن يجد فى كتاب أندلسى شيئًا جديدًا فما وجد. فهذه الظاهرة تدلّ على دلالة واضحة على مدى تقليد أهل الأندلس للمشارقة.

و مما امتازت به المرحلة الأولى أيضًا النشاط اللغوي، فقد بذر العرب الأولون القادمون من المشرق بذورها، ثم تعهدها أبو على القالي بالعناية، وتخرج على يديه لفيف من الأدباء واللغويين أمثال: ابن القوطيّة، وهو مؤلف كتاب "الأفعال"، وأبي بكر الزبيدي صاحب كتاب "أخبار النحويين"، و ابن السيّد البطليسوى صاحب كتاب "الاقتضاب" وسواهم كثير.

المرحلة الثانيّة- انتقال الأندلسيين من التقليد إلى التجديد:

وهي مرحلة انتقال من التقليد إلى التجديد، حيث أدراك الأندلسيون خلالها شخصيتهم وتحقق لهم التأثر الفعلي بالبيئة الأندلسية وأنماط الحياة فيها، كما تعمّقت جذور الثقافة فى أراضيهم. وهكذا ظهرت ملامح التجديد فى كلّ من الشعر والنثر من غير أن يزول التقليد زوالاً نهائيًّا، ثم إنّ تقليد الأندلسيين للمشارقة المجددين هو نفسه لا يخلو من تجديد.

وأبرز المظاهر التجديديّة فى الشعر الأندلسي إبان تلك الفترة الواقعة بين أوائل القرن الخامس الهجري وأواخر القرن السادس تتجلّى فى:

أولاً- العناية بالشكل، فقد فهموا الشعر عمليّة غنائيّة فنّية أكثر منه عمليّة فكريّة، فصرفوا اهتمامهم إلى الموسيقى والألفاظ ورشاقة التعبير وخفّة الوزن، حتّى بات الشعر الأندلسي فى هذه المرحلة يمتاز عن الشعر للمشارقة بهذه الخفّة و إشراق الديباجة و قرب المتناول.

ثانيًا- الإقليميّة، ومؤادها أن الأندلسيين من الأجيال المولّدة نسوا أوطان آبائهم وأجدادهم وراحوا يصفون بيئتهم وما فيها من خصب وجمال ومستحدثات حضارة و تعلّقوا بها تعلّقا زاده حدّة ما كانوا يلقونه من عيون تتفتّح على تلك الجنان وأطماع تمتدّ إلى معاقل العرب فى الأندلس. وهكذا سادت بشعر الأندلسي إقليميّة واضحة المعالم. فإذا الشاعر ينفعل أشدّ الانفعال لمرأى الأرض الّتي ترعرع عليها وتكوّنت ذكريات الصبّا والشباب بين حناياها، فينطلق لسانه بغناء عذب رقيق يصوّر لنا مفاتن البلاد ومحاسنها على نحو ما نرى فى الشعراء ابن حمديس وابن عبدون وابن خفاجة ولسان الدين بن الخطيب وابن زيدون وابن عمار والمعتمد بن عباد وسواهم.

ثالثًا- الموشحات، الموشحات من اختراع أهل الأندلس، وهي شعر جديد يختلف تمام الاختلاف عن القصيدة الكلاسكيّة فى أوزانه و قوافيه وشروط تركيبه. وإن كان لا يختلف عنها فى موضوعاته. ولقد و ضعت الموشحات للغناء واستخدمت فى شتى الأغراض، لكن أبرز ما عنيت به : الخمريّات والغزل و وصف الطبيعيّة، وهذه الموضوعات متّصل بعضها ببعض فى حياة الاندلسي.

وفى هذه المرحلة حذا الحكّام وملوك الطوائف حذو المشارقة فى الاهتمام بالدواوين واختيار أصحاب الأقلام والأساليب الأدبيّة الرفيعة للعمل فيها، فارتقى الترسل وتنافس الكتّاب فى تجويد الإنشاء وكتابة المقالات والمؤلّفات، وأصبح النثر في الأندلس ذا مقام رفيع، وتعزز الكتّاب وعظمت قيمتهم وتولّوا المناصب العاليّة حتّى بلغوا الوزارة كما بلغهما كتّاب المشارقة.

فابن حزم وُزِّرَ للأمويين، ولسان الدين بن الخطيب وزرّ لملوك غرناطة، وابن زيدون وزر لبني جهور.

وفي هذا العهد كثرت المؤلّفات النثريّة فتناولت اللغة والأدب والدين والتاريخ والفلسفة والعلوم والشؤون السياسيّة والعسكريّة الديوانيّة.

أما أبرز مميّزات النثر الاندلسي، فالأناقة والترسل والعناية بالإخراج والأساليب والحرص على السمو والتفتن فى استخدام ألوان الكلام و توفير.

المرحلة الثالثة- مرحلة التجديد:

هي المرحلة الأخيرة من نهضة الأدب الأندلسي، حيث بلغ فيها ذروته شعراً ونثرًا. وقد رافق فى ذلك ازدها الحركة الفكرية ونهضة العلوم والمعارف. أما الشعر، فقد تحرر من المشارقة كل التحرر، وصار له أساليبه وفنونه المستمدة من الحياة الاندلسية الخاصة، كشعر الموشحات، وشعر الوصف والشعر الوجدانى، ورثاء الممالك الزائلة، والاستنجاد...الخ.

أولاً- الشعر الأندلسي:

١- من أبرز أعلام الشعر الأندلسي:

يحيى بن حكَم (الغَزال)*

(١٥٦ - ٢٥٠ هـ)

١ - هو يحيى بن حكم، البَكْري، الجَيّاني[١]، المشهور بلقب الغزال. فالبكري نسبة إلى أصله العربي، والجيّاني نسبة إلى مدينة جَيّان التي ينتمي إليها وإن كانت سكناه في قرطبة. والغزال لقب لزمه لحسنه، وجماله الذي حافظ عليه إلى زمان متأخر من حياته.

وكان الغزال ذكيّاً، ألمعيّاً، حاضر البديهة (وهذا يفسّر قدرته على ارتجال الشعر)، وكان جريئاً صريحاً يقول ما يعتقده، ويصرّح بما يجول في نفسه، ومن هنا برز في ديوانه شعر النقد الاجتماعي والهجاء والتّعريض.

وكان الغزال مثقّفاً ثقافة واسعة في العلوم العقلية والعلوم النقليّة. وقد وُصِف بالعرّاف لخبرته في علم النجوم.

وقد كان مُقَرَّباً إلى البيت الأمويّ، فتولى عدداً من الأعمال، وذهب سفيراً إلى بلاد المَجُوس، وإلى القسطنطينيّة[٢].

وهناك خبر عن رحلة للغَزال إلى المشرق، وليس بين أيدينا تفصيلات عنها.

---

* يُنظر ديوانه (مجموع شعره)، ومقدّمتنا لدراسة حياته وشعره (الطّبعة الثانية - دار الفكر - دمشق ١٩٩٣).

(١) تنظر ترجمته في المقتبس (تح الدكتور محمود علي مكي) ١١ - ١٣، وجذوة المقتبس ٣٥١، وبغية الملتمس ٤٨٥ - ٤٨٦، والمغرب في حُلى المغرب ٥٧/٢، والبيان المغرب ٩٣/٢، ونفح الطيب ٢٥٤/٢ - ٢٥٦، والمطرب من أشعار أهل المغرب ١٣٢، ويتيمة الدهر ٥٦/٢

(٢) هناك تفصيل لخبر سفاراته في مقدمة الدّيوان ١٥ - ١٧

- واختلف في بلاد المجوس أهي الدانمارك أم إيرلنده، وهما من مناطق نفوذ النّورمانديين.

٢ - شعر الغـزال البـاقي يـدل علـى نظمـه في أغـراض شـتّى، فيهـا الغـزل، والهجاء، والمدح، والوصف، والحكمة والتأمّل في شـؤون الحيـاة، وتـبرز مقـدرة الشاعر على معالجة النّقد الاجتماعي في موضوعات مختلفة.

- والهجاء - والتّعريضُ فَـرْعٌ لاحـقٌ بـه - مـن أغـراض الشـاعر البـارزة في شعره الباقي.

ومن يراجع شعر الغزال يتنبّه إلى أن الهجاء عنده - في مـا بـين أيدينـا منـه - موظّف في قضايا اجتماعيّة غالباً. فقد هجا المغني (زرياب) بشعر لم يصل إلينـا. وعدداً من ذَوي المكانة والسُّلطة كالقـائد ابـن أبـي العطـاف لهروبـه مـن بعـض الوقـائع، ونَصْـر الخصـيّ، والقـاضي يُخـامر (لغفلتـه) وبعـض عُـدول القـاضي يُخامر...

ويظهر للمتابع أنّ الغزال لم تكـن لـه مـع هـؤلاء وأمثـالهم قضايـا شـخصية، ولكنه كان يعالج حالات عامّة أو ينتقد ظواهر محدّدة[١].

- ويبرز في شعره عنصر النقد الاجتماعي مثل الغنى والفقر، وعلاقـة الرجـل بالمرأة، وألعاب التسلية التي لا هدف لها، واختلـط نقـده الاجتمـاعي بالسـخرية اللاّذعة، والدّعابة.

- وفي شعر الغَزال الباقي قطع غير قليلة تتعلّق بحياته من سـفر وغُربـة، ومـن طُول الزمان الذي عاشه فتقلّبت به الأحوال مع أمراء خمسة حكمـوا الأندلـس، ومع أجيال متوالية تمرّ به وهو ثابت كشجرة زيتون عتيقة.

ومن هذا الشعر المعبّر، قصيدة على بحر الرجز (أُرجوزة) يقول فيها[٢] :

---

(١) يلاحظ أن أستاذنا الدكتور شوقي ضيف ترجم للغزال في (شعراء الهجاء) انظر كتابه عن الأندلس في سلسلة تاريخ الأدب العربي ٢٣٠

(٢) الديوان ٤٧ - ٤٨

تَســـألِني عـــن حـــالتي أمُّ عُمَـــرْ
وهـي تَـرى مـا حـلّ بـي مـن الغِـيَرْ[١]
ومـا الَّـذي تَسـألُ عنـهُ مـن خَـبرْ
وقـد كَفاهَـا الكشـفُ عـن ذاكَ النَّظـرْ
ومـــا تكـــونُ حـــالتي مـــع الكِـــبَرْ
اربـدَّ مـــني الوجـهُ وابيـضَّ الشَّـعرْ[٢]
وصـــار رأســـي شُـــهرةً مـــن الشُّـــهَرْ
ويَبســـت نضـــرةُ وَجهـــي واقْشَـــعَرْ[٣]
ونقـــصَ السّـــمعُ بنقصـــان البَصـــرْ
وصِـــرْتُ لا أنهـــضُ إلاّ بعـــدَ شَـــرّ
لـو ضـامني مَـنْ ضـامني لم أنْتَصِـرْ[٤]
فـــانظُرْ إليّ واعتـــبِرْ ثـــمّ اعتـــبِرْ
فـــإنَّ للحليـــمِ فيَّ مُعْتَـــبَرْ![٥]

فهذه صورةٌ تجمع بين تصوير الظاهر الخارجي لرجل تقدمت به السنّ جـدّاً؛ وبين التصويـر الداخلـي الـذي يفسّـر الشـكوى، ويقـدم لهـا الأسـباب والعلـل. والقصيدة تدلّ على طبيعة شخصية الغزال: الواضحـة، والواقعيّـة. وهـي صـورةٌ مرسومة بيد صاحبها الذي يسـوق الكـلام بـين الحقيقـة الماثلـة (الصعبـة) وبـين الدُّعابة المرحة أيضاً.

وتبلغ السخرية مداها حـين يتصـوّر كيـف سـيعامله أقاربـه بعـد موتـه! لقـد استطالوا حياته، وخلّف جيلاً بعد جيل حتى جاء من أهله وذويه من لا ينسجم

---

(١) الغير: هي غير الدهر وأحواله وحدثانه المتغيّرة.
(٢) اربدّ من الرُّبدة وهي الكُدرة. ويكون ذلك من غضب؛ وأراد هو أثر كبر السنّ.
(٣) اقشعرّ الجلد: قفّ وتقبّض.
(٤) ضامه حقه، وضامه في حقه: نقصه إياه وظلمه.
(٥) الحليم: العاقل (يريد من ينتفع بأحوال غيره).

معه (لاختلاف السنّ والمشرب والاهتمام). وانظرْ إلى آخر بيت، وصورته الحركيّة: التي تنضح أسىً، ولا تخلو من تخيّل ابتسامة استغراب!

قال[١]:

أصبحتُ والله مَحسُوداً على أمدٍ ... مِن الْحَياةِ قصيرٍ غيرِ مُمتدِّ
حتّى بقيتُ بحمدِ الله في خَلَفٍ ... كأنّني بينهمْ من خَشيةٍ وَحْدي
وما أُفارقُ يوماً مَنْ أُفارقُه ... إلا حسبتُ فراقي آخِرَ العهدِ
انظرْ إليَّ إذا أُدرجتُ في كَفَني ... وانظُرْ إليَّ إذا أُدرجتُ في اللّحدِ
واقعدْ قليلاً وعاينْ مَنْ يُقيم مَعي ... ممّن يُشيّعُ نَعشي مِن ذَوي وُدّي
هيهاتَ كُلّهُم في شأنِهِ لعِبٌ ... يَرمي التّرابَ ويحثُوهُ عَلى خَدّي![٢]

وهذه صورةٌ أخرى[٣]، ولكنها - الآن - لإنسان كما يراه الشاعر؛ وهو إنسان تغلبه شهواته، ويتصرّف من وحي مصلحته الشخصية دون اعتبار لغيره: إنسان أنانيّ تكثر فيه الآفات (الاجتماعية). ولا تخلو الصورة من المبالغة:

إذا أُخْبرتَ عن رَجُلٍ بَريءٍ ... من الآفاتِ ظاهِرهُ صَحيحُ
فَسَلْهُم عنهُ: هَلْ هو آدميٌّ؟ ... فإنْ قالوا: نَعَمْ، فالقولُ رِيْحُ![٤]
ولكنْ بعضُنا أهلُ استِتارٍ ... وعندَ الله أجمَعُنا جريحُ[٥]
ومن إنعامِ خالِقنا عَلينا ... بأنَّ ذُنوبَنا ليستْ تَفوحُ[٦]
فلو فاحتْ لأصبَحْنا هُروباً ... فُرادى بالفَلا ما نستَريحُ
وضاقَ بكلِّ مُنتحلٍ صلاحاً ... لنَتْنِ ذُنوبِه البَلدُ الفسيحُ![٧]

---

(١) الديوان ٤٦ - ٤٧
(٢) حثا عليه التراب: هاله.
(٣) الديوان ٤٢
(٤) فالقول ريح: لا قيمة له، لا يثبت.
(٥) أهل استتار: ستر. وجريح: مجروح أي فيه قولٌ أو طعن (يريد: لا أحد بلا ذنوب).
(٦) جعل الشاعر الذنوب كالرّائحة الْمُنتنة؛ ولكن من إنعام الله تعالى أنّ رائحتها لا تفوح (وفي هذا سَتْرٌ أيضاً).
(٧) انتحل الصلاح: ادّعاه وهو ليس من أهله.

تعليق: يُنظر في الغرض العام للقطعة، وفي معاني بعض الأبيات شعر لأبي العتاهية (ديوانه ٩٧) وفيه:
أحْسَنَ الله بنا أنَّ ..... المنايا لا تفوحُ!

- وهذه صورة لمغنية تقدمت بها السنّ[١]؛ ذهب رونقها، وشاهت صورتها، ولم يُحْسن لسانُ قولها. فهي - عنده - تستحق السُّخرية والوصف الضاحك:

جَرداءُ صلعاءُ لم يُبقِ الزَّمانُ لها ... إلا لساناً مُلِحّاً بالْمَلامات[٢]
لَطمْتُها لَطْمَةً طارتْ عِمامَتُها ... عن صَلْعَةٍ ليس فيها خمسُ شعراتِ[٣]
كأنّها بَيضةُ الشَّاري إذا بَرقت ... بالمأزقِ الضَّنْكِ بينَ الْمَشْرفيّاتِ[٤]
لها حُروفٌ نواتٍ في جوانِبها ... كقسمةِ الأرض حِيزَتْ بالتَّخوماتِ[٥]
وكاهلٌ كسنامِ العِيْسِ جَرَّدهُ ... طولُ السِّفار وإلحاحُ القُتودات![٦]

ولا شك في أنّ هذه القطعة، تؤكّد ما ينتبه إليه القارئ في سائر شعر الشاعر من ظهور موهبة التصوير، والتقاط الصُّور الغريبة، اللافتة، ومن مزج الصورة الحقيقية الواقعية بشيء من السُّخرية التي تقتضي نوعاً من المبالغة في الأشكال والأحوال والألوان.

- وهذه قطعة قصيرة تعبّر عن موقف كامل. وكان الغزال يكتفي بالقطعة، ولو كانت البيتين والثلاثة، إذا استطاع بها أن يصور الموقف أو يقدّم الفكرة.

والقطعة تتحدث عن فقيه ولاّه القاضي معاذ الشعباني على الأحباس (الأوقاف) فلم يكن نزيهاً في الحفاظ على أموال الناس بَين يديه وهي تغضّ من معرفة القاضي معاذ بالنّاس؛ وتصفه بطيب القلب وسلامة النية التي تُطمع (فقهاء السُّوء): قال[٧] :

---

(١) الديوان ٤٢

(٢) الْمَلامُ والملامة: العَذْلُ. ويريد الشاعر أبضاً ما وراء ذلك من الثرثرة وما يتبعها.

(٣) العمامة - في اللغة -: ما يُلَفُّ على الرّأس.

(٤) الشاري: الخارجي. والبيضة: الخوذة. وشبهها - لامعةً - بخوذة أحد الخوارج لعنايتهم بالحرب واستعدادهم وترتيب آلتهم.

(٥) لها حروفٌ نواتٍ: أصلها نواتئ بالهمزة فحذف. ولعلها نواتي على التسهيل. والتّخوم: مفصل ما بين القريتين والأرضَيْن... ولم أقف على جمع الكلمة بـ (تخومات).

(٦) القَتَدُ: خشب الرَّحْل، والجمع - في كتب اللغة -: أقتاد وأقْتُد وقُتود.

(٧) الديوان ٦٧ - ٦٨

يقـول لي القـاضي معـاذٌ مشـاوراً —وولّى امرءاً— فيما يرى—من ذوي العَدْلِ—:
فديتُـكَ! مـاذا تحسب المرء صانعـاً؟ فقلت: وماذا يفعل الـدبُّ في النحـلِ
يـدقُّ خلاياهـا ويـأكلُ شـهدها ويـترك للذبّانِ ما كـان من فضـلِ!

لقد كان الغزال صوتاً اجتماعياً عالياً، لا يستنكف عن الجهر بالرّأي، ولا يوارِبُ، ولا يهادن، ويسمّي الأشياء بأسمائها ولو كانت التسمية جارحة. إنه يضحّي بالكياسة الاجتماعية في سبيل قول الرأي الصريح، وتقديم الصّورة على حالها ولو كانت قبيحة!

ابْنُ زَيْدُون*

(٣٩٤ هـ - ٤٦٣ هـ)

اشتهر ابن زيدون بعدد من المواهب الشخصية والأدبيّة؛ ويُعَدُّ نموذجاً لتكامل هذه المواهب والخصال في نتاجه الأدبي من جهة، وفي حياته العملية من جهة ثانية.

وقد بقي لنا من آثاره الأدبية ديوان شعر، ورسالتاه: الجدية والهزلية؛ ونتف أخرى من رسائله؛ وهي على قلّتها تسوّغ له المكانة المرموقة التي وصَل إليها في زمانه، والتي احتفظت بها ذاكرة التاريخ السياسي والاجتماعي والأدبي في الأندلس والمشرق معاً.

وهو أبو الوليد أحمد بن عبد الله بن غالب بن زيدون المخزومي، القرشي، القرطبي. وأبوه - الذي كان أول أساتذته - من فقهاء مدينة قرطبة المعدودين في زمانه، ومن ذوي النفوذ لدى الدولة الأموية، كما كان من ذوي اليسار أيضاً.

في بيئة ملائمة، وفي ظلّ أُسرة علميّة، ذات مكانة اجتماعيّة نشأ ابن زيدون وتعلّم، وتدرّج بين لداته في علومه، وفي ظهور شخصيّته. فقد لفت إليه الانتباه:

---

* ترجمته في الذخيرة ١-٢٨٩/١، وجذوة المقتبس ١٢١، وبغية الملتمس ١٧٤، والمطرب ١٦٤، والمعجب ١٦٢، والمغرب ٦٣/١، وقلائد العقيان ٨٠، وإعتاب الكتاب.

- وانظر ابن زيدون: علي عبد العظيم، ود. شوقي ضيف، وابن زيدون: رؤية في الشخصية ودراسة في الفن - د. محمد رضوان الداية.

- و: الغزل الأندلسي في القرن الخامس الهجري - د. علي دياب - ط ٢ - ١٩٩٤ م - دمشق.

بذكائه وفطنته، ومعرفته بفن الكتابة الديوانية والأدبية، وبراعته في نظم الشعر، وكياسته في ربط العلاقات مع الناس.

وكانت المدّة التي عاش فيها ابن زيدون مدّة صعبة على الأندلس: فحين ولد ابن زيدون كان الحكم تحت قبضة أسرة الحاجب (المنصور) ابن أبي عامر وكانت الخلافة الأموية قد آلت إلى شكل خارجي صوري. وما لبثت الفتنة أن ذرّت قرنها بانقضاء دولة العامريين، وكانت الفترة بين (٤٠٠ و ٤٢٢ هـ) فترة قاسية كثر فيها الخلفاء الأمويون، وتدخل بعض الحسنيين الواردين من المغرب في بعض المناطق وأقاموا لأنفسهم دويلة، واستطال بعض الولاة والقادة وسيطروا على بعض المناطق، وبدأ ما يُعْرَف في التاريخ الأندلسي باسم دول الطّوائف.

واشتهر من دول الطوائف: بنو جَهْوَر الذين سيطروا على قرطبة وما والاها. وبنو عَبّاد الذين اتّخذوا إشبيلية لدولة تضم مساحة واسعة.

ولا تلبث أخبار ابن زيدون حتى تعلن عن وجوده في ديوان الحكم الذي يديره أبو الحزم بن جَهْوَر حاكم قرطبة[1].

ويظهر في شعر ابن زيدون في هذه المدّة (منذ نبوغه في الشعر إلى هجرته من قرطبة إلى إشبيلية) أثر موقفين مهمين في حياته:

أحدهما: دخوله السّجن (أقلّ من سنتين) في قضية حقوقيّة على يد قاضٍ متشدّد إلى أن نجا من السّجن بالفرار (أو بمساعدة أبي الوليد بن جَهْوَر بما يُشبه الفرار).

والثاني: إعجابه بالأميرة الأموية ولاّدة بنت المستكفي، وقد وُصِفَت بالكياسة والذّكاء وقوة الشّخصية، والمشاركة في الأدب (نظم الشعر).

---

(١) انظر كتاب محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس: العصر الثاني: دول الطوائف. وكتاب الدكتور عبد الرحمن الحجي: التاريخ الأندلسي.

وقد أشار ابن زيدون إلى هذه الخصال بعبارة الشَّرف التي توحي بالمعاني الحقيقية والمجازية من النسب والحسب والتمكّن والحفاظ على المكانة، فقال:

ما ضرّ أن لم نكن أكفاءه شرفاً وفي المودّة كافٍ من تكافينا[1]

وقد رجع ابن زيدون إلى عمله في الديوان[2] مدة حياة أبي الحزم، وشطراً من مدة حكم ابنه أبي الوليد بن جَهْوَر. وخاف ابن زيدون عواقب فتنة نشبت في قرطبة اشترك فيها بعض أصحابه، فترك قرطبة، ولحق بإشبيلية عند بني عباد مرحّباً به. واستمر هناك إلى أن احتل بنو عباد قرطبة سنة (٤٦١ هـ).

وفي إشبيلية حظي ابن زيدون بمقام رفيع في الوزارة والسفارة، كما كان في قرطبة، مع زيادة تقدير وتوقير أيام المعتضد بن عباد، وابنه المعتمد بن عَبّاد.

لم يكد ابن زيدون ينعم بالعودة إلى مدينته المحبوبة قرطبة حتى اضطر إلى الذهاب لإشبيلية لعمل يتعلق بوظيفته، سنة (٤٦٣ هـ)، ولكنه مرض في هذه الرحلة، وتوفي. وخَلَفَهُ ابنه أبو بكر عند بني عَبّاد بمثل ما كان لوالده من تقدير وتكريم.

كانت ثقافة ابن زيدون واسعة، ومعرفته كبيرة: علمه أبوه (ت ٤٠٥ هـ) وكفله جدّه لأمّه أبو بكر محمد بن إبراهيم بن سعيد القيسي (ت ٤٣٢ هـ) فأخذ عنه، وأفاده شيوخٌ، فيهم أبو العَبّاس أحمد بن عبد الله بن ذكوان (ت ٤١٣ هـ) وأبو بكر مُسلم بن أحمد القرطبي النّحوي (ت ٤٣٢ هـ)؛ وأساتذة آخرون، إضافة إلى قراءات ابن زيدون الخاصّة في مكتبات الأسرة، وفي مصادر العلم والمعرفة الغزيرة في مدينة قرطبة العريقة؛ وإلى دروس العلم التي كانت تلقى في المسجد الجامع بقرطبة، وبالزَّهراء. وألمح د. ضيف[3] إلى موارد ثقافة ابن زيدون فقال: إنه من صنع قرطبة وجامعتها، وما كان يُلقى فيها من الدروس

---

(١) من قصيدته: أضحى التنائي؛ وتجدها في هذا الكتاب.

(٢) «وزَر ابن زيدون لأبي الحزم جهور وزارة استشارة لا وزارة عمل»: تاريخ الأدب العربي - د. عمر فرّوخ - ٤/٥٩٠

(٣) ابن زيدون ١٧

وضروب التعليم إذ كان يختلف - كغيره من شباب عصره - إلى العلماء والأدباء هناك فينهل من معارفهم وثقافاتهم ويأخذ من آدابهم وعلومهم ما يصقل به لسانه ويشحذ فكره، وفي ذلك يقول مفاخراً:

ونجّذني علم توالت فنونه كما يتوالى في النظام سخاب[1]

عالج ابن زيدون عدداً من الأغراض الشعريّة:

- فأوسع فنون شعره: الغزل والنّسيب، والمديح؛ ومعه شيء من الاستعطاف والاعتذار.

- وتتدرّج الأغراض الأخرى بعد ذلك: من الإخوانيات (ومعها ألغازٌ وأحاجٍ ومُباسطات) والتعريض والهجاء، والحنين إلى قرطبة ووصفها.

الغزل والنّسيب:

يشكّل هذا الفن نحو ثلث شعر ابن زيدون؛ وهو في تقدير الدكتور عمر فرّوخ[2]: أجملَها، وأصدقها تعبيراً عن نفسه وألصقها بأحداث حياته.

وإشارات كتب الأدب والتراجم الأندلسيّة القديمة مثل (قلائد العقيان) و (الذخيرة) و (المغرب) تدل على أن قسماً كبيراً من غزل ابن زيدون كان لاسم ولاّدة، وهي الأميرة الأموية ابنة المستكفي، أحد الخلفاء، الضّعاف الذين نصبوا في مدة الفتنة (٤١٤ - ٤١٦ هـ).

ويتردّد في هذه الكتب، وغيرها، كما تشير نصوص الديوان نفسها بأن هذا القدر العظيم من شعر الغزل هو في وَلاّدة، إذ يُذكر اسمها صراحة، أو يشار إليها فيه إشارة (فقد كانت ترفض أن يذكر اسمها في الشعر)، ومن جهة أخرى فإن هناك إشارات أخرى من ذكر نسبها (عبد شمس) أو مكانتها (سليلة الدوحة

---

(١) نجّذني: صقلني وهذبني. والسحاب: قلادة تُتّخذُ من أزهار عطرة.

(٢) تاريخ الأدب ٤/٥٩٤

الأموية) أو شكلها ولونها وملامحها (كما تصورها أبيات كثيرة في قصيدته: أضحى التنائي).

وتعضد الدراسة الموضوعية والأسلوبية للشعر هذا التوجّه؛ فإن ولادة كانت موجودة في شعر الصّبا، والشباب بكثرة وقوّة؛ وتوجد لها ملامح كثيرة في الشعر الذي نظمه الشاعر بعد القطيعة.

على أنّ في الباحثين من يظنّ أنّ ولادة لم تظفر إلا بالنزر اليسير من شعر ابن زيدون. وفيهم د. محمود صبح الذي يبالغ ويقول دون دليل: إن قصيدة (أضحى التنائي) و (إني ذكرتك بالزهراء) ليستا في ولادة[١]!

أما الدكتور إحسان عباس فيثير تساؤلات كثيرة لحصر الشعر الذي قيل في ولادة ومحاولة تخليصه من الشعر الذي قيل في غيرها (؟) على الرغم من صعوبة ذلك في قصائد كثيرة[٢].

والدكتور شوقي ضيف[٣] يقسم شعر الغزل عند ابن زيدون ثلاثة أقسام:

- ما قيل في المرحلة الأولى من اللّقاء والقبول.

- ما قيل في المرحلة الثانية من القطيعة.

- ما قيل في المرحلة الثالثة من اليأس أو ما سمّاه (دور الذّكرى) وينتظم هذا الدور مقدمات مدائحه.

ويؤكّد ما ذهب إليه د. ضيف، بصفة عامّة، انسجام كل قسم أو مرحلة في مقاصده وعواطفه، وأنّ ابن زيدون لم يذكر بعد ولادة اسماً آخر، ولا يلمح قارئ الدّيوان شبحاً آخر تجنب الشاعر الإشارة إليه.

---

(١) ابن زيدون شاعر قرطبة ٦٣

(٢) دراسات في الأدب الأندلسي ١٩٢ وما بعدها، في بحث عقده لولاّدة.

(٣) ابن زيدون ٣٥ - ٣٦

١) من شعر الغزل في الدور الأول: قوله:

هـــل لداعيـــك مجيـــبُ — أم لشـــاكيك طبيـــبُ
يـــا قريبـــاً حـــين ينـــأى — حـــاضراً حـــين يغيـــبُ
كيـــف يســـلوك محـــبٌّ — زانـــه منـــك حبيـــبُ

- وقوله في قطعة أخرى:

لئن كنت في السنّ تِرْبَ الهـلالِ — لقد فقت في الحسن بَدْرَ الكمالِ
لقـد بلّغتـني دواعـي هـواك — إلى غايـة مـا جـرتْ لي ببـالِ
فقـل للهـوى يَجْـر مِـلْءِ العنـان — فَمَيْـدانُ قلـبي رحيـبُ المجـالِ!

وشِعْرُ هذه المدّة، في الديوان الـذي بـين أيدينـا، قليـل، ويغلـب عليـه شـكل المقطوعة، فكأن كل قطعة تعبـير موجـز، أو بطاقـة سـريعة يختزن فيهـا الشـاعر خواطره، ولمحات نفسه.

٢) وتظهر قطع وقصائد بعد ذلك تنضح بالشكوى والألم: «فالدُّنيـا عابسـة من حوله، وكبده تتفتّت حسرة وقلبه يتقطع ألماً...»[١] ومن هذه الأشعار:

يـــا غـــزالاً أصـــارني — موثقـــاً في يـــد المِحَـــنْ
إنّـــي مُـــذ هَجرتـــني — لم أذقْ لـــذّة الوســـنْ
ليـــت حظـــي إشـــارة — منـــك أو لحظـــةٌ عَنَـــنْ[٢]
ليـــس لي عنـــك مذهـــب — فكمـــا شـــئت لي فكـــنْ!

ومنها قَوْلُه:

كـــم ذا أُريـــد ولا أُرادْ — يـا سـوء مـا لقـي الفـؤادْ
أُصفـــي الـــودادَ مدلّـــلاً — لم يَصْـفُ لي منـه الـودادْ
يقضـــي علـــيَّ دلالُـــه — في كـل حـينٍ أو يكـاد

---

(١) ابن زيدون: د. شوقي ضيف ٣٤
(٢) العنن: العارضة.

وواضحٌ أن هـذه الصـورة مـن غزلـه تبـاينُ الصـورة الأولى. فقـد فـرّت منـه السعادة التي كان يَنْشُدها، و لم يعد له منها إلا عذابُ السجن والألم والفراغ...

٣ - والقصيدتان المشهورتان: (أضحى التنائي)، و (إني ذكرتـك بـالزّهراء) نظم الأولى بَعد القطيعة، ونظم الثانيـة بعـد السّـجن، وهـو في حـالٍ صعبـة مـن ضياع الآمال والأحلام: في السياسة من جهة وفي العاطفة من جهة أخرى. وهو - إن عاد إلى عمله بعد اسْتِرضاء أبي الخزم بن جهور - بقي مفرداً وحيداً بعـد قطيعة لم تغيّرها الأيّام التالية.

وابن زيدون، في تَقْدير الْمُعْتَدلين من دارسي فـن الغـزل عنـده، نظـم شـعره الغزلي هذا عن تجربة صادقة[1] ضغطت على شعوره وقلبه و لم تلبث أن حطمت فؤاده، وقصيدته (أضحى التنـائي): قصيـدة تفيـض بـالحنين والحـب والـولاء... وكأنما يصب فيها زفراته، وينفث لوعاته... قال الدكتور ضيف: ونلتقـي دائمـاً في ديوانه بمثل هذه القصيدة؛ ومن أروع ما فيه قصيدته (إني ذكرتك بـالزهراء) كتبها إليها بعد خروجه من السّجن، وقبل العفو عنه..

والقصيدة القافيّة هذه قصيدة تعاطف فيها الشاعر مع الطبيعة وبثّهـا أحزانـه، وجعلها تشاركه في ما ينتابُه؛ فكان له فيها تخفيفٌ عما به، وتعبـير عـن أشـواقه إلى الذكريات الماضية.

والشاعر في هذا النص - وإن كان قد مال إلى شيء مـن وصـف الطبيعـة - يريد أن يتحدّث عن ولاّدة في المقام الأول: وهكذا نجده يجعل النسـيم يـرقّ لـه، ويجعل قطرات الندى على الأزاهير دموعاً تبكي بها علـى حالـه، ولمـا حَـلّ بـه؛ ويطلب إلى النّسيم أن يحمله إليها:

إنّـي ذكرتُـكِ بـالزهراءِ مشـتاقا ... والأفق طَلق ووجه الأرضِ قـد راقـا
وللنسـيمِ اعتـلالٌ في أصائلـه ... كأنّـه رقّ لي فـاعتَل إشـفاقا[1]
والروضُ عـن مائه الفضيِّ مبتسم ... كما شققتِ عـن اللَّبّات أطواقـا[2]
نلهـو بما يستميلُ العينَ من زهرٍ ... جال النـدى فيـه حتى مـال أعناقـا
كـأن أعينـه إذْ عـاينتْ أرقـي ... بكتْ لمـا بـي فجالَ الدمـع رقراقـا
وردٌ تـألقَ في ضـاحي منابتـهِ ... فازدادَ منه الضُّحى في العين إشـراقا[3]
سَـرى ينافحـهُ نيلوفـرٌ عبـقٌ ... وسنانُ نبّـهَ منـه الصبـح أحداقـا[4]
كـلّ يهيـجُ لنـا ذكـرى تشـوّقنا ... إليكِ، لم يعُد عنها الصدر أن ضاقـا
لا سكّن الله قلبـاً عـن ذكركُـم ... فلـم يطـرْ بجنـاحِ الشـوقِ خفّاقـا
لو شاء حملي نسيمُ الصبح حين سَرى ... وافـاكُم بفتـىً أضنـاه مـا لاقـى
يـوم كأيـامِ لـذاتٍ لنـا انصرمـتْ ... بتنـا لهـا حـين نـامَ الدهـر سُـرّاقا
لو كان وفّـى المنى في جمعنـا بكـم ... لكـان مـن أكـرم الأيـام أخلاقـا
يا عِلْقي الأخطرَ الأسنى الحبيب إلى ... نفسي، إذ ما اقتنى الأحباب أعلاقا[5]
كان التجازي بمحض الودِّ مذْ زمـن ... ميـدانَ أنسٍ جرينـا فيـه أطلاقـا[6]
فـالآن أحمَـد مـا كنـا لعهدكـم ... سَـلَوْتُمُ، وبقينـا نحـن عشـاقا!!

يستمر ابن زيدون إذن على هذا النحو شاكياً إلى الطبيعة، جاعلاً إياها جسراً ينقل أفكاره إلى محبوبته، وكأنه يقول: إن الدنيا قد تجاوبت معي فيما أنا فيه، ويدعو ولادة إلى العودة إلى الماضي، أو على الأقل إلى مشاكلة الطبيعة فيما حنّت به عليه.

---

(١) الأصائل ج أصيل: وهو العشي.
(٢) اللبات ج لبة: وهي موضع القلادة من الصدر.
(٣) ضاحي منابته: من «ضحا» إذا برز للشمس.
(٤) النيلوفر: ضرب من الرياحين ينبت في المياه الراكدة.
(٥) العلق: الغالي النفيس. الأخطر والخطير: الرفيع. الأسنى: الأضوأ.
(٦) أطلاق: جمع طِلق (بالكسر): الشوط. يقال: عدا طلقاً أو طلقين. والتجازي: التقاضي. والمحض: الخالص.

- وقصيدة (أضحى التنائي)[١] من القصائد الطويلة في ديوان ابن زيدون، وموضوعها شخصيّ (غزلي): ولا تكاد تختلف أخبار القصيدة وملاحظات النقاد أنها قيلت في ولادة بنت الْمُستكفي، بل إن فيها إشارات واضحة إليها. ولولا الحرج لذكر اسْمها (انظر البيت ٣٤ من القصيدة).

- وهي قصيدة تمثل حياته الحاضرة، وتلخص حياته الماضية من جوانب متعدّدة، وكان حديث ابن زيدون عن أيامه الماضيات بما فيها من نعيم، وأيامه الحاضرة وما فيها من شقاء حديثاً فيه شيءٌ من المبالغة.

- وقد شاعت هذه القصيدة - مع (إني ذكرتك بالزهراء) - في المشرق والمغرب، ومن أسباب ذلك الشيوع: سهولة النصّ وكونه في غرض الغزل، وظهور أسلوب الشاعر فيه، وتجلّيه للقارئ في أجلى صوره إلى موسيقيّةٍ رنّانة ناعمة حالمة تشيع في القصيدة كلّها؛ وخيالٍ جامح.

أضْحى التَّنائي بديلاً من تَدانينا ... ونابَ عن طيْبِ لُقيانا تَجافينا
ألاّ وقد حانَ صُبحُ البينِ صَبَّحنا ... حَيْنٌ، فقامَ بنا للحَين ناعينا[٢]
مَنْ مُبلِغُ الْمُلبسينا بانتزاحِهِمُ ... حُزناً مع الدّهْرِ لا يَبْلى ويُبلينا
أنّ الزّمانَ الذي ما زالَ يُضحكنا ... أُنساً بقربهِمُ قد عاد يُبكينا
غِيْظَ العِدا من تَساقينا الهوى فدَعَوْا ... بأنْ نَغصَّ، فقال الدهرُ: آمينا
فانحلَّ ما كان معقوداً بأنفُسنا ... وانبَتّ ما كان موصولاً بأيدينا[٣]
وقد نكونُ وما يُخشى تفرّقنا ... فاليوم نحنُ وما يُرجى تلاقينا
يا ليتَ شعري و لم نُعتب أعاديكم ... هل نالَ حظّاً من العُتْبى أعادينا[٤]

---

(١) القصيدة في الديوان ١٤١ - ١٤٨

(٢) ألاّ: حرف تحضيض. الحين: الهلاك. وفي الديوان: «داعينا» في موضع «ناعينا»؛ وهذه رواية نفح الطيب.

(٣) انبتّ: انقطع.

(٤) العُتبى: الرضا. وأعتبه: أعطاه العتبى. يريد لم نأت ما يسر أعاديكم.

لمْ نعتقدْ بعدكم إلا الوَفاءَ لكمُ ... رأياً، ولم نتقلَّدْ غيرهُ دينا
ما حقُّنا أن تُقِرّوا عينَ ذي حسدٍ ... بنا، ولا أن تَسُرّوا كاشحاً فينا(١)
كنا نَرى اليأس تُسلينا عوارِضُه ... وقد يئسنا فما لليأس يُغرينا
بنتمْ وبِنّا فما ابتلَّتْ جوانحنا ... شوقاً إليكم، ولا جفت مآقينا(٢)
نكادُ حين تُناجيكم ضمائرنا ... يقضي علينا الأسى لولا تأسينا(٣)
حالت لفقدكمُ أيامنا فغدَتْ ... سوداً، وكانت بكم بيضاً ليالينا(٤)
إذ جانبُ العيش طلقٌ من تألُّفنا ... ومربعُ اللهو صافٍ من تصافينا
وإذ هَصرنا فُنونَ الوصلِ دانيةً ... قطافُها، فجَنينا منه ما شينا(٥)
لِيُسْقَ عهدكُم عهدُ السّرور فما ... كنتمْ لأرواحنا إلا رياحينا
لا تحسبوا نأيَكم عنا يغيرُنا ... إنْ طالما غيّرَ النأيُ المحبِّينا(٦)
والله ما طلبت أهواؤنا بدلاً ... منكم، ولا انصرفت عنكم أمانينا
ولا استفدنا خليلاً عنك يَشغلُنا ... ولا اتخذنا بديلاً منك يُسلينا
يا ساريَ البرق غادِ القصرَ واسق به ... من كان صرف الهوى والودِّ يسقينا(٧)
واسأل هنالك هل عَنّى تذكُّرنا ... إلفاً تذكُّره أمسى يعنّينا(٨)
ويا نسيمَ الصِّبا بلّغْ تحيّتنا ... من لو على البُعد حَيّى كان يُحيينا
فهل أرى الدهرَ يقضينا مُساعفةً ... فيه، وإن لم يكن غِبّاً تقاضينا(٩)

---

(١) الكاشح: مضمر العداوة.
(٢) بان القوم: فارقوا. يريد: ابتعدتم، وابتعدنا.
(٣) الأسى: الحزن. وتأسّى: تحمّل وتجلّد، وتعزى وتصبر.
(٤) حال الشيء: تحوّل من حال إلى حال.
(٥) هصر الغصن: أماله. وفنون الوصل: ضروبه وأنواعه. (والفنون ج فنن وهو الغصن وما تشعب منه).
(٦) وفي رواية: إذ طالما.
(٧) غاد القصر: أي باكره بالغمام (أول النهار).
(٨) عنّى: آلم وأتعب.
(٩) غب الرجل: جاء زائر أيام، أو كل أسبوع.

ربيبُ ملكٍ كأنَّ اللهَ أنشأه ... مِسْكاً، وقدَّر إنشاء الورَى طينا

أو صاغهُ وَرِقاً محضاً وتوَّجهُ ... من ناصعِ التِّبر إبداعاً وتحسينا[١]

إذا تأوّدَ آدَتْهُ رفاهيةً ... تُومُ العقود، وأدْمَتْهُ البُرى لينا[٢]

كانتْ له الشّمسُ ظئراً في أكِلّتهِ ... بل ما تجلّى لها إلا أحايينا[٣]

كأنما أُثْبِتَتْ في صحنِ وجنتِه ... زُهْرُ الكواكبِ تعويذاً وتزيينا[٤]

ما ضَرَّ أن لم نكنْ أكفاءهُ شرَفاً ... وفي المودّة كافٍ من تَكافينا

يا روضةً طالما أجنَتْ لواحظَنا ... ورداً جلاه الصَّبا غضّاً ونِسرينا

ويا حَياةً تَملَّيْنا بزهرتها ... مُنىً ضُروباً ولذاتٍ أانينا[٥]

ويا نعيماً خَطَرْنا من غضارتهِ ... في وَشْيِ نُعْمى سحَبنا ذيله حينا[٦]

لسنا نُسمّيكِ إجلالاً وتكرمةً ... وقدْرُكِ الْمُعتَلي عن ذاك يُغنينا

إذا انفَردْتِ وما شُوركتِ في صفةٍ ... فحَسبُنا الوصفُ إيضاحاً وتبيينا

يا جنَّةَ الخُلْدِ أُبدِلنا بسدْرَتِها ... والكوثر العذب زَقُّوماً وغِسْلينا[٧]

كأنّنا لم نَبِتْ والوصلُ ثالثُنا ... والسّعدُ قد غَضَّ من أجفانِ واشينا

سِرّانِ في خاطر الظَّلماء يكتُمنا ... حتى يكادَ لسانُ الصبحِ يُفشينا

لا غروَ في أنْ ذكرنا الحزنَ حين نهَتْ ... عنهُ النُّهى وتركْنا الصّبرَ ناسينا

---

(١) الورق: الفضة. التبر: الذهب.

(٢) تأود: تمايل. آدته: أثقلته. تؤم العقود: مزدوجة من اللؤلؤ. (والتؤام ما تشابك من اللؤلؤ). البرى ج برة: الخلاخيل.

(٣) الظئر: المرضعة. الأكلة جمع كلة: وهي ستر رقيق.

(٤) زُهر الكواكب: أي النيرة المشرقة. وزُهر جمع أزهر.

(٥) تملينا: تمتعنا. ضروب: صنوف (ج ضرب).

(٦) خطر في مشيته خطراناً: رفع يديه ووضعهما، واهتز وتبختر. الغضارة: النعمة والسعة والخصب وطيب العيش.

(٧) السّدرة (سدرة المنتهى) شجرة في السماء السابعة. والزقوم: شجرة في جهنم، منها طعام أهل النار، الكوثر: نهر في الجنة، الغسلين: ما يسيل من جلود أهل النار ولحومهم ودمائهم.

إنّا قَرأنا الأسى يومَ النّوى سُوَراً ... مكتوبةً، وأخذْنا الصَّبْرَ تلقينا

أمّا هواكِ فلم نَعدِلْ بمَنهلِهِ ... شِرباً، وإن كان يَروينا فيُظمينا[1]

لم نَجْفُ أُفقَ جمالٍ أنتِ كوكبُهُ ... سالينَ عنه؛ ولم نهجُرْه قالينا[2]

ولا اختياراً تجنَّبْناهُ عن كَثَبٍ ... لكن عَدَتْنا - على كُرهٍ - عوادينا[3]

نأسى عليكِ إذا حُثَّتْ مشعشعةً ... فينا الشَّمولُ، وغنّانا مُغنينا

لا أكؤسُ الرّاحِ تُبدي من شمائلنا ... سيما ارتياح، ولا الأوتارُ تلهينا

دومي على العهد - ما دمنا - محافظةً ... فالحرُّ مَنْ دانَ إنصافاً كما دِينا

فما استَعَضْنا خليلاً منكِ يَحْبسنا ... ولا استفَدْنا حبيباً عنكِ يَثْنينا

ولو صَبا نحوَنا من عُلْوِ مَطْلعهِ ... بدرُ الدجى لم يكن حاشاكِ يُصبينا

أَوْلِيْ وفاءَ وإن لم تبذُلي صِلَةً ... فالطيفُ يقنعُنا والذِّكْرُ يَكفينا

وفي الجوابِ مَتاعٌ إن شفعتِ به ... بيضَ الأيادي التي ما زلتِ تُولينا

عليكِ منّا سلامُ الله ما بقِيتْ ... صَبابةٌ بكِ نُخفيها فتُخْفينا

المدح[4]:

يُعَدّ المدح الغرض الثاني في أغراض ابن زيدون، في الديوان الماثل بين أيدينا. ولم يكن ابن زيدون من الشعراء المتكسبين بالشعر، ولكنه كان يقدّمه في وفادةٍ على حاكم، أو تقرّباً إلى أمير، أو تثبيتاً لمكانته السياسيّة، أو اعتذاراً ممزوجاً بالمديح (كما نعرف من حاله مع أبي الحزم بن جهور)، ومن هذا قولُه في أواخر قصيدةٍ له في أبي الحزم:

عُتباكَ - بعد العتب - أمنيّةٌ ... ما لي-على الدهر-سواها اقتراح!

---

(١) الشرب: المورد، والماء المشروب.

(٢) قلا يقلو قلاءً وقلاً: أبغض.

(٣) العوادي: الشواغل (ج عادية) الشغل يصرفك عن الشيء، وعدتنا: صرفتنا.

(٤) انظر (المدح) في الفصل الثاني من هذا الكتاب.

فهو لا يريدُ أكثر من رضى الأمير عنه، ومعاملته كسابق عهده.

وقوله من قصيدة أخرى:

فاشفعْ أكنْ مثل ممطورٍ ببلدتـه جَذْلانَ بالوَطنِ المألوفِ والوطرِ!

ولم يطلب في هذه القصيدة أكثر من حسن المعاملة، وقبول الشَّفاعة من أي تهمةٍ ألصقت به أو ظنّ في حُسن ولائه.

- وقد مدح ابن زيدون أبا الحزم بن جهور وابنه أبا الوليد (وكان أبو الوليد صديقاً له) ومدح المعتضد بن عَبّاد صاحب إشبيلية وابنه المعتمد (وكان المعتمد صديقاً لابن زيدون وتلميذاً على مدرسته الشعريّة). ومدح المظفر بن الأفطس صاحب بَطَلْيَوْس، والأمير باديس بن حبوس صاحب غرناطة.

- ومن أغراض شعر ابن زيدون: الاستعطاف. وهو لجأ إلى هذا الغرض حين سُجن في ظلّ دولة أبي جهور، وقد توسل ابن زيدون - في محاولاته لإقالة عثرته - بالنثر والشعر. وفي هذه المدة - مدّة سجنه ومدة قليلة بعدها اختفى فيها إلى أن سوّي الأمر مع ابن جهور - أصدر ابن زيدون عدداً من الرسائل والقصائد الاستعطافية إلى ابن جهور، وعدداً آخر من الرسائل والقصائد التي لها علاقة بسجنه وفراره من السجن، ليست من أدب الاستعطاف؛ ولكنها لَمّا كانت في ظلّ تلك المدة، وتوسلاً ببعض أصدقائه لإنقاذه؛ سلكنا دراستها في أثناء موضوع الاستعطاف والاعتذار.

في السجن تعرض الشاعر لمعاملة قاسية: ذلك أنه سجن في البداية في مكان يليق بالسجين السياسي، ثم نزلوا به إلى سجن جمعوا فيه بينه وبين اللصوص والسراق وقطاع الطرق؛ فكان هذا أمراً شديداً جداً عليه. ولعله أيضاً مُنع من أن يزوره أقاربه كالعادة؛ وتذكّر أمه المريضة الطاعنة في السن. فكان هذا يزيده حسرةً، ويزيده ألماً. يقول في مخاطبة أمه:

أمقتولـةَ الأجفـان مـا لـكِ والِهـاً ألم تُـرِكِ الأيـام نجماً هـوى قبلـي؟

وقال من قصيدة أخرى يذكر فيها كم مضى عليه من أيام في السجن:

أفَصـبراً مئـين خمسـاً مـن الأيـا مِ نـاهيكَ مـن عـذابٍ مُقيـمِ
ومُعَنّـى مـن الضّنـى بهنـاه نكـأتْ بـالكُلوم قـرح الألـومِ
سـقَمٌ لا أُعـاد فيـه وفي العـا ئـدِ أنـس يفـي بـبرءِ السّـقيمِ

وكان لا بدّ للشاعر من أن يخرج من ذلك السجن. ولقد حاول لخروجه محاولات عديدة فاتصل بالأمير أبي الحزم مباشرة برسائل وقصائد كان يبعث بها إليه، ولكنها لم تُجد نفعاً، فاتصل بعدد من أصدقائه ممن لهم صلات وثيقة بالأمير محاولاً أن يجعلهم وُسطاء بينهما. وكان من الذين كلفهم بهذه المهمة صديقه الكاتب الوزير أبو حفص بن برد الأصغر في قصيدته:

مـا علـى ظنّـيَ بـاسُ يجـرحُ الدهـرُ ويـاسـو

ولكن محاولاته جميعاً لم تفلح، فكان لا بدّ له من ثاني الخطتين فلجأ إلى الفرار. وفي هربه روايات؛ فبعضهم يقول إنه هرب مستعيناً بحارس السجن مطمعاً إياه بالمال، وبعضهم يرى أنه ما كان ليستطيع الفرار دون معاونة من ذي سلطة في قرطبة. ويبدو – وهذا رأي له مرجّحاته الكثيرة – أن الشاعر «إنما هرب من السجن بمساعدة خفية من صديقه وليّ العهد أبي الوليد بن جهور» ولم يكن هذا غريباً في ذلك الزمان الذي يغصّ بالملابسات السياسية المتشابكة.

وقد اعتذر في إحدى قصائده عن الفرار من السجن (فقد لامه بعضهم لذلك الفرار وعدوه عيباً) قال:

وقـد وسَموني بـالتي لسـتُ أهلهـا ولم يُمْـنَ أمثـالي بأمثالِهـا قَـطُّ
فـررتُ فـإن قـالوا: الفِـرار إرابـةٌ فقد فَرّ موسى حين هَمَّ به القِبطُ[1]

---

(١) إرابة: أي اتهام وشكّ. أي هو فرَّ مضطراً كما فرَّ موسى عليه السلام.. إلخ.

وقال من رسالة مطولة له معتذراً عن فراره من السجن مصوّراً تلك الحادثة: فلم أستطع صبراً، وعلمت أني أبليت عذراً؛ و لم يبق إلا أن يعذرني لبيد وكاد، ورأيتُ أن «العاجز من لا يستبد»، «فالمرء يعجز لا المحالة»، و لم أستجز أن أكون ثالث الأذلّين: العَير والوتد، وذكرتُ أن الفِرار من الظّلم والهرب مما لا يطاق من سنن المرسلين؛ قال الله، عز وجل، على لسان موسى، عليه السلام: ﴿فَفَرَرْتُ مِنْكُم لَمّا خِفْتُكُم﴾ [الشعراء ٢٦/٢١].

وقال الشاعر:

لا عارَ لا عارَ في الفرار فقدْ ... فرَّ نبيُّ الهدى إلى الغارِ

إلى آخر الرسالة.

قوله: أبليت عذراً، أي أديته إليه فقبله – وقد أشار إلى قول لبيد:

إلى الحولِ ثم اسم السلام عليكما ... ومن يَبْكِ حولاً كاملاً فقد اعتذرْ

وإشارته إلى أن العاجز من لا يستبد معنى من قول عُمَر بن أبي ربيعة:

* إنّما العاجزُ مَن لا يستبد *

وإشارته إلى الأذلّين معروفة عند العرب ومن ذلك ما قاله المتلمس:

ولا يقيمُ على ذُلٍّ يُراقبُهُ ... إلا الأذلاّنِ عَيْرُ الحيّ والوتدُ

وهرب ابنُ زيدون من سجنه، ولجأ بصورة مؤقتة إلى دولة بني عباد – وقيل إلى مكان آخر – إلى أن عاد إلى قرطبة مرة أخرى.

وهذه قصيدةٌ كان بعث بها إلى صديقه أبي حفص بن برد الكاتب، ليتوسط لدى أبي الحزم لعله يفك إسارد.

والنصّ يصور حال الشاعر النفسية وثورته العارمة على ظروفه.

قال*:

مـــا عَلَـــى ظَنِّـــيَ بـــاسُ   يَجْـرحُ الدَّهــرُ وياســو[١]
رُبمــا أشْــــرَفَ بـــالْمَرْ   ءِ علـــى الآمـــالِ يـــاسُ
ولقـــد يُنْجيـــكَ إغْفــــا   لٌ، ويُرْديـــكَ احْــــتِراسُ
والمحـــــاذيرُ سِـــــهامٌ   والْمَقــــاديرُ قِيـــــاسُ[٢]
ولَكَـــمْ أجــدى قُعــــود   ولَكــم أكْــدى التِمــاسُ[٣]
وكــــذا الدَّهـــرُ إذا مــــا   عَـــزَّ نــــاسٌ ذَلَّ نــــاس
وبنـــو الأيَّـــامِ أخيــــا   فٌ: سَـــراةٌ وخِســــاسُ[٤]
نَلْبَـــسُ الدُّنيــــا ولكــــنْ   متْعَــــــةٌ ذاكَ اللِّبــــــاسُ
يــا أبــا حَفْــصٍ ومــا ســا   واكَ في فَهْـــمٍ إيــــاسُ[٥]
مــــن سَـــنا رأيـــكَ لي   في غَسَـقِ الخَطْـبَ اقتبـاسُ[٦]
وَوِدادي لــــــكَ نَــــــصٌّ   لم يُخالفْـــــهُ قِيــــــاسُ[٧]
أنــــا حَـــيْرانُ ولِلأمْـــــ   ـــرِ وضُـــوحٌ والتِبـــــاسُ
مــا تــرَى في مَعشـــرٍ حــا   لُوا عـن العهْـدِ وخاســوا[٨]
ورَأونـــــي ســــــامِريّاً   يُتّقـــى منـــه المســــاسُ[٩]

---

* الديوان ٢٧٣ - ٢٧٧

(١) ياسو (يأسو): يداوي.

(٢) المحاذير ج محذور: وهو ما يُحذر منه. قياس ج قوس. المقادير ج مقدار: الأمر المحتوم.

(٣) أكدى الرجل: بخل وقلّ خيره، أو قطع عطاءه. أجدى: أغنى وأفاد.

(٤) هم أخياف أي مختلفون. (وإخوة أخياف أي أمهم واحدة والآباء شتى)، سراة جمع سري: وهو الماجد السخي، وخساس جمع خسيس: الدني، والدون لا يعبأ به.

(٥) إياس: هو إياس بن معاوية يضرب به المثل بالزكن (الفطنة والتفرس وسرعة الفهم).

(٦) الغسق: الظلمة. والسنا: الضياء.

(٧) النص: القول المحكم من القرآن الكريم أو الحديث الشريف، ولا مجال للرأي معه. والقياس أن تقيس المشكلة الحاضرة على مثيلاتها مما ورد فيه نص صريح.

(٨) خاس: غدر ونكس.

(٩) السامري: هو الذي أضلّ بني إسرائيل ودعاهم إلى الشرك لما خرج موسى عليه السلام لمناجاة ربه. وعاقبه الله بأنه لا يمس إنساناً إلا أدركتهما الحمى معاً، فكان يتحاشى الناس.

كُلّهمْ يسأل عن حا لي، وللذّئب اعتساسُ[١]
إنْ قسا الدهرُ فلِلما ءِ من الصخرِ انبجاسُ[٢]
ولَئنْ أمسَيْتُ محبو ساً فللغيثِ احتباسُ
أذؤبٌ هامت بلحمي فانتهاشٌ وانتهاسُ[٣]
يلبد الوَرْدُ السَّبَنْتى وله بعدُ افتراسُ[٤]
فتأمَّلْ كيف يَغْشى مُقلةَ المجدِ النّعاسُ
ويُفتّ المِسْكُ في التّرْ بِ، فَيُوطا ويُداسُ
لا يكنْ عَهدُكَ وَرْداً إنّ عَهدي لكَ آسُ
وأدِرْ ذكريَ كأساً ما امتَطَتْ كفّكَ كأسُ
واغتَنِمْ صَفْوَ الليالي إنّما العَيْشُ اختلاسُ
وعَسى أنْ يسمحَ الدّهـ ـرُ فقد طالَ الشِّماسُ[٥]

صنع ابن زيدون النص في هذا الجو النفسي الخاص: جو السجن الخانق الذي ضيق فيه على الشاعر تضييقاً شديداً. لنقل إذن في مناسبة النص: سجن الشاعر ورأى أنه مظلوم، فكتب إلى الأمير أبي الحزم يستعطفه ويسترضيه، فلم يفلح فيما حاول. وكتب إلى بعض أصدقائه من ذوي المكانة فلم يستمعوا إليه. وبلغه عن بعض أصدقائه القدامى ما ينالونه به من وقيعة لدى الأمير فحزّ ذلك في نفسه. وكتب بهذا المعنى إلى صديقه الكاتب أبي حفص بن برد الأصغر هذه الأبيات التي بين أيدينا.

---

(١) اعتس: طاف بالليل.
(٢) انبجس الماء: انفجر.
(٣) الانتهاش: الأخذ بالأضراس. والانتهاس: الأخذ بمقدم الأسنان.
(٤) السبنتى: الجريء. والورد: من أسماء الأسد.
(٥) شمس الرجل: امتنع وأبى، والفرس الشموس إذا كان لا يمكن أحداً من ظهره، ولا من الإسراج والإلجام ولا يكاد يستقر.

وهذه القصيدةُ تُعدُّ في القصائد غير الطويلة التي بين أيدينا من شعر ابن زيدون. وهي بالقياس إلى شعره في السجن قصيدة أقل طولاً وأقصر عدد أبيات من غيرها، وهو استعمل بحراً قصيراً نظم عليه[1]، وهي على حالها هذه أشبه بأن تكون حكايةَ حالٍ من أن تكون شكوى واستجداء. ذلك أن الشاعر آنس من صديقه أبي حفص وفاء وحسن بلاء وغَيْباً حسناً، فشكا إليه سوء تلك العلاقات الإنسانية مع كثير من الناس.. شكا له أولئك الأشخاص الذين ربّاهم فكانوا وبالاً عليه.. وأنه في نصه هذا ليث جريح حبيس لا يقوى على الصَّولة، لكنه لم يفقد حماسة المؤمن بقضيته؛ المقتنع من حسن الختام.. وفي تقديري أن الشاعر قد أنشأ هذا النص في مرحلة متأخرة من أيام سجنه. ذلك أننا نجده في هذا النص في حالٍ من الغضب الشديد، لم يكن غضبه لأنه سُجن ولكن من تلك العلاقات التي انبتت من أصدقاء قُدامى وجدوا في سجنه (الذي طال أمده) وسيلة للطعن عليه، والتقرب إلى السلطان بالكيد له، وشتمه والانتقاص منه.

والشاعر لا يزال على أمل قوي في أن تنفرج الكربة، وأن تزول الغشاوة وأن تتزحزح تلك الصخرة التي سدت أمامه السبل.. وهو يحدثنا عن الزمان الغادر والحظ البائس الذي كان من نصيبه. وهو إذ يلقي التبعات على الزمان إنما يدلنا على أمور فهو حين تضيق به السبل يجد الزمان هدفاً سهلاً قريب المتناول. وقد يكون الهجوم على الزمان ستاراً للهجوم على أشخاص قد لا يستطيع أن يهاجمهم مباشرة؛ فهو لن يهجو أبا الحزم بن جَهْوَر ولن يناله بسوء، وهو سجين على كل حال. وإن في (الدهر) و (الزمان) و (القدر) و (الأيام) و (اللّيالي) و (الحظّ) وسائل كافية لكي ينفّس بها عَمّا في مكنونِه ودخيلة نفسه.

---

(١) مجزوء الرمل

٢- رثاء الدُّول والممالك الزائلة:

كانت مدّة دول الطوائف بـالأندلس (ومجالها القـرن الخـامس تقريبـاً) مـدّةً قاسية على الأندلس من الناحية السياسية والعسكرية؛

فقـد انفـرط عقـد الأندلـس الموحّـدة الـتي ضَمّتهـا الدولـة الأمويـة وصـارت أندلسات كثيرة؛ وصار في كل بقعةٍ دويلةٌ صغيرة لا تقـوى علـى التماسـك ولا حمايةِ نفسها: لا من دويلة أُخرى أندلسية، ولا من دول الشمال المتربّصة، والـتي تنتهز الفرص لتنهش من جسم الأرض الأَندلسيّة.

ـ ودخل كثير من هذه الدّويلات في خُصومات في ما بَيْنَهُـم وكـانت أحيانـاً خصومات عنيفة، اشتبكت فيها الأسلحة، وأريقت دماء.

ـ وعاش ملوك الطوائف حياة ترف وسرف. وضيعوا رسم الجهاد، وأسـرفوا على الناسَ في أخذ الضرائب.

ـ ونشد ملوك الطّوائف السّلامة مع الدول الشمالية (قشـتالة خاصـة)، وأدّوا أموالاً طائلة أخذوها من جيـوب النـاس ومـن خزينـة الحكـم لإرضـاء ألفونسـو السادس ملك قشتالة وغيره.

---

(١) أزهار الرّياض ٢/١٥٥.

٢- رثاء الدُّول والممالك الزائلة:

كانت مدّة دول الطوائف بـالأندلس (ومجالها القـرن الخـامس تقريبـاً) مـدّةً قاسية على الأندلس من الناحية السياسية والعسكرية؛

فقـد انفـرط عقـد الأندلـس الموحّـدة الـتي ضَمّتهـا الدولـة الأمويـة وصـارت أندلسات كثيرة؛ وصار في كل بقعةٍ دويلةٌ صغيرة لا تقـوى علـى التماسـك ولا حمايةِ نفسها: لا من دويلة أُخرى أندلسية، ولا من دول الشمال المتربّصة، والـتي تنتهز الفرص لتنهش من جسم الأرض الأَندلسيّة.

ـ ودخل كثير من هذه الدّويلات في خُصومات في ما بَيْنَهُـم وكـانت أحيانـاً خصومات عنيفة، اشتبكت فيها الأسلحة، وأريقت دماء.

ـ وعاش ملوك الطوائف حياة ترف وسرف. وضيعوا رسم الجهاد، وأسـرفوا على الناسَ في أخذ الضرائب.

ـ ونشد ملوك الطّوائف السّلامة مع الدول الشمالية (قشـتالة خاصـة)، وأدّوا أموالاً طائلة أخذوها من جيـوب النـاس ومـن خزينـة الحكـم لإرضـاء ألفونسـو السادس ملك قشتالة وغيره.

---

(١) أزهار الرّياض ٢/١٥٥.

ولا شكّ في أنّ هذه الحال أضعفت المُسلمين في الأندلس، وأتاحت للعدوّ احتلال بُرْبَشْتَر، وطُلَيْطِلَة، وغَيرَها من النَّواحي. وقد سجّل الشعر هذه الكوارث، وقدّم الشعراء رؤيتهم، واستنهضوا الهمم، ورفعوا صوت الاستغاثة.

وأسْهَم نفَرٌ من العُلماء وأهل الحَلّ والعَقد في الأندلس في التوجه إلى دولة المرابطين الناشئة في المغرب لطلب المساعدة والعون، وأقنعوا المعتمد بن عباد صاحب إشبيلية من كبريات دول الطوائف للاستنجاد بأمير المسلمين يوسف بن تاشفين.

وقد أثمر هذا التعاون الأندلسي ـ المغربي نصراً عظيماً في موقعة الزلاّقة سنة (٤٧٩هـ).

ـ ورجع ابن تاشفين ثانية سنة (٤٨١هـ) برسم الجهاد

ـ وعاد ثالثة، ((وكان مجيئه هذه المرة: برغبة الفقهاء الأندلسيّين وأهل الحل والعقد لا رغبة الأمراء والحكام، وكان يهدف بوضوح إلى إزالة دول الطوائف، والجهاد، للحفاظ على الأندلس))[1] .

وتساقطت دويلات الطوائف في أيدي المرابطين طوعاً أو كرهاً. وتوحدّت الأندلس تحت نظام واحد، في دولة تجمع الأندلس والمغرب.

وقد سَجّل الأدب هذا الموقف التّاريخي. فكان في الأدباء والشعراء من نظر من زاوية مصلحة الأمة في الوحدة، والقوّة، وإبقاء رسم الجهاد. وكان فيهم من نظر من زاوية أُخرى إلى زوال تلك الدّول التي كان أكثرها يرعى الأدب والأُدباء ويشجع الشعراء على المدح والثناء ويغدق عليهم العطايا، فنظم شعراً في زوال تلك الدول ورثائها، أو في مصائر أولئك الأمراء، والبكاء على ما مضى من زمانهم.

---

(١) ابن خفاجة محمد رضوان الداية ط٢، ص١٥.

ـ وانظر للتفصيل التاريخي محمد عبد الله عنان في الجزء الخاص بعصر الطوائف من تاريخه.

١ - وممّن أثنى على صنيع المرابطين بإزالة تلك الدّول المفرّطة، التي عرّضت الأندلس كلها للخطر، وضيّعت من الأراضي والبلدان ورسومُ الحكم ما لم يعوّض: أبو الحسن بنُ الجَدّ الذي قال في قصيدة مدح بها ابن تاشفين وعرّض بملوك الطوائف:

أَرى الملوكَ أصابتهم بأندلس ... دوائرُ السُّوءِ لا تُبقي ولا تَذَرُ
ناموا وأسرى لهم تحت الدّجى قدرٌ ... هوى بأنجمهم خَسْفاً وما شعروا
وكيف يَشْعُر مَنْ في كفّه قدحٌ ... يحدُو به مُلهياه: الناي والوتر؟
فقل لمن نام أصبحتَ! انتبهْ! فلقد ... مضى بك الليل نَحْباً وانقضى السّحَرُ
وانظرْ إلى الصّبح سيفاً في يدي ملكٍ ... في اللهِ من جنده التأييدُ والظفر
يرعى الرعايا بطرفٍ ساهرٍ يقظٍ ... كما رعاها بطرفٍ ساهرٍ عُمَرُ

فهذه الأبيات تجمع بين ذمّ حكم دول الطوائف وبين مدح أمير المُسلمين يوسف بن تاشفين. والشاعر يسوّغ ما جرى لملوك تلك الدويلات وحكّامها ويصفهم بصفاتٍ سلبيّة يُثبت التاريخ أنّها ثابتة على كثير منهم. وقد أثنى الشاعر على ابن تاشفين بصفاتٍ دينية ودنيوية، وقد أثنى المؤرخون بمثلها عليه. على أنّ الشاعر أَظْهَر صفات أولئك القوم الفاسدة ووضعها إلى جانب مزايا ذلك القائد المظفر، فجاءت المفارقة واضحة صارخة.

وقد أدار الشاعر كلامه بأسلوبٍ رقيق دقيق، جمع فيه بين التعبير المباشر حين يكون الوصف التقريري مناسباً، وبين التعبير الفني القائم على التصوير حين تكون الصورة أداةً للإبانة وتوكيد الفكرة.

- وفي الشعر المشهور بيتان يُنسبان إلى ابن رشيق، أنشدهما في وصف حال دول الطوائف بالأندلس، وهو وصف انتقادي لاذع يمثّل رؤية أهل الفكر والرأي إلى تلك الأحوال الصعبة!.

مما يزهّدني في أَرْض أَنْدَلُسٍ ... ألقابُ معتمدٍ فيها ومُعتضد
ألقابُ مملكةٍ في غيرِ مَوْضِعِها ... كالهرّ يحكي انتفاخاً صولة الأَسدِ!

٢ ـ ونظم عدد من شعراء هذه المدّة قصائد ومقطوعات تذكر ما أصاب دول الطوائف من الإزالة، أو الانهيار، أو الاضطرار إلى التسليم للسلطة الجديدة:

ـ في تصوير تاريخي ـ أدبي لما أصاب تلك الدّول من الزّوال والانهيار،

ـ وما أصاب الملوك والحكام، وأولادهم؛

ـ ووصف للتغيير الجذري الذي طرأ على تلك المدن، والدُّول ومن وجهة نظر خاصّة ضيّقة؛ وإن تغلفت أحياناً بلمساتٍ إنسانية.

وأول ما نذكر من هؤلاء الشعراء أميراً سقطت دولته، وقُتِل بعض أبنائه، ودخل في أسر المرابطين ـ حلفاء الأمس ـ ونفي عن إشبيلية إلى أغْمات (مدينة بالمغرب) وعاش بقية عمره أسيراً سجيناً، وعانى أهلهُ معه معاناة شديدة: هو المعتمد بن عَبّاد[1].

كان المعتضد ـ والد المعتمد ـ قد أنشأ لنفسه دويلة في إشبيلية، وأصل أسرته عربي لخميّ. وقد تربى المعتمد (محمّد) في رعاية أبيه، وعلى يد أشهر العلماء والفقهاء والأُدباء، حتى تخرّج فارساً، وإداريّاً، وشاعراً، وحمل أعباء الحكم بعد وفاة والده.

وكان من الشعراء في بلاطه: وزير دولة بني عباد أبو الوليد بن زيدون، وأبو بكر بن عَمّار، وابن اللبّانة، وابن حمديس الصقلي، وغيرهم كثير.

وحين عزم يوسف بن تاشفين على دخول الأندلس سنة (٤٨٣هـ) كان في نيّته القضاء على دول الطوائف نظراً لتهاونها في شؤون البلاد، واستمرار

---

(١) ترجم له في الذخيرة ٢/٤١، والحلة السيراء ٢/٥٢، والخريدة (قسم الأندلس) ٢/٢٥ والمعجب ١٥٨، والمطرب ١٤، والإحاطة ٢/١٠٨، وأعمال الأعلام ١٥٧ والبيان المغرب ٣/٢٥٧، والوافي بالوفيات ٣/١٨٣، ووفيات الأعيان ٥/٢١.

ـ وقد جمع شعره ونشره في مصر، وتونس.

الخلافات في ما بين حكامها، وتعاونهم مع عدوّ البلاد ألفونسو، وغيره؛ وعدم انضباط أكثرهم في حياتهم الخاصّة والعامّة مما يؤثر في مجريات الأحداث الداخلية والخارجية.

وقد ثبت لابن تاشفين ((رجوع بعض رؤوساء الطوائف إلى مصادقة ألفونسو ملك قشتالة ومُمالأته، بل واستعدائه على محاربة يوسف نفسه وإمداده لذلك بالأموال والهدايا. وكان هذا بالذات موقف عبد الله بن بلقين صاحب غرناطة، ثم كان في ما بعد موقف المعتمد بن عباد. وقد عمد كلاهما في الواقع إلى تحصين بلاده والاستعداد للدفاع عنها))[1].

وقد تمكّن يوسف بن تاشفين من التغلب على المعتمد، فخلعه عن ملكه وحمله أسيراً إلى أغمات، ومعه مَنْ كان في القصر بإشبيلية من أسرته وفيهم زوجته اعتماد الرّميكيّة، وعددٌ من أولاده. واشتغلن بالحياكة (بعد ذلك العزّ) للحصول على لقمة العيش!!

ولما ثار أحد أبناء المعتمد على المرابطين ـ واسمه عبد الجبّار ـ قُيّد المُعتمد في سجنه بقيود إمعاناً في التشديد عليه، فزاد ذلك من آلامه. وقد قُتِلَ عبد الجبار، وماتت الرُّميكية؛ ثم توفي هو أيضاً (سنة ٤٨٨هـ).

ـ ومن شعر المعتمد في أسره، يشكو حاله، وقد حلّ عيد الفِطر سنة (٤٨٥هـ) قوله يخاطب نفسه في حوار داخليّ يملؤه اليأس والحسرة، وهو يرى زوجته وبناته في تلك الحال البائسة:

في ما مضى كنتَ بالأعياد مسرورا ... فجاءك العيدُ في أغمات مأسُورا

ترى بناتِكَ في الأَطمارِ جائعةً ... يغزلنَ للنّاس ما يملكن قِطميرا[2]

---

(١) عصر الطوائف محمّد عبد الله عنان ٣٣٨.

(٢) الأطمار جمع الطِّمر: الثوب البالي. والقِطْمير الغِشاء الرّقيق الذي يُغلّف نواة الثمرة ويضرب به المثل في الشيء النّزْر الذي لا قيمة له.

بـرزنَ نحـوكَ للتّسـليم خاشـعةً ... أبصـارهنَّ، حسيراتٍ مكاسـيرا[١]
يطـأن في الطـين والأقـدامُ حافيـةٌ ... كأنهـا لم تطـأ مِسْكاً وكـافُورا[٢]
أفطرتَ في العيـد لا عـادتْ إساءته ... وكـان فطـرك للأكبـادِ تفطـيرا[٣]
قـد كـان دهـرُك إن تَـأْمُرْهُ ممتثـلاً ... فـردّكَ الدهـرُ منهيّـاً ومـأمورا
مـن بـاتَ بَعْـدَك في مُلْـكٍ يُسَـرُّ بـهِ ... فإنّمـا بـات بـالأحلامِ مَغْـرُورا

والقطعة تنضح أسىً وحسرة؛ والشاعر، وإن ذكر مأساة نفسه، فقد اهتمّ قلبه لمأساة بناته وزوجته. أمّا هو فقد كان الآمر الناهي فصار المأمور المنهيّ، وها هو ذا يلاقي العيد في أسوأ حال. وأما بناته فقد قاسين العوز، ومشين حافيات، في حال ضعف وانكسار. ويجيء البيت ممزوجاً بالحكمة التي علّمته إياها تجربة الحياة المريرة.

- ومن شعره يذكرُ حاله وغُربته، ويتذكر قصوره، وصولته في ملكه الذي ذهب عنه قوله[٤] :

غريـبٌ بـأرض المغربـين أسـيرُ ... سـيبكي عليـه منـبرٌ وسـريرُ
وتندُبُـه البيـضُ الصّـوارمُ والقنـا ... ويَنْهَـلّ دمـعٌ بينَهُـنَّ غزيـرُ
فيـا ليـتَ شـعري هـل أبيـتنّ ليلـةً ... أمـامي وخَلْفـي روضـةٌ وغديـرُ؟
بِمُنبتـةِ[٥] الزيتـونِ مُورثـة العُـلا ... تَغَنّـى قيـانٌ أو تَـرنُّ طيـورُ؟
بزاهرها السـامي الـذُّرا جـادَهُ الحَيَـا ... تشـير الثريـا نَحْوَنـا ونشـير[٦] ؟

---

(١) الحَسِيرُ: الحَزِيْن.
(٢) يشير إلى قصّةٍ جرت في إشبيلية بينه وبين زوجته اعتماد صنع لها فيها طيناً من المسك والكافور. (انظر دراستنا عن المعتمد بن عباد في سلسلة الروائع الجديدة).
(٣) تفطير: تقطيع.
(٤) ديوانه: ١٧١-١٧٢.
(٥) مُنبتة الزيتون كناية عن مدينة إشبيلية الشهيرة بزيتونها وزيتها ذي السمعة الجيدة إلى اليوم.
(٦) يذكر أسماء بعض قصوره في إشبيلية الزاهر، والثريّا.

والنصُّ ينضح بالحَسْرة على ما فات من الزمان حين كان المعتمد في أوج عزّه وسلطانه، ويفيض بالألم الظاهر حيناً، المكتوم حيناً آخر على ما آلت إليه حالهُ وحال أهله؛ ولا يَنْسى الشاعر الأمير أن يتذكّر ما مضى، كما كان يقف الشعراء القدامى على أطلال الدّيار...

- وفي شعراء المُعتمد الذين مدحوه وقت سُلطته وعِزّه أبو بكر بن اللبّانة[1] (محمد بن عيسى) الداني (ت٥٠٧هـ). وكان ابن اللبّانة ممّن وَفَوْا للمعتمد، يزوره بين الفينة والفينة ويمدحه. وله قصائد في التفجّع على مصير آل عباد، ورثاء أيّامهم منها:

تبكي السَّماءُ بمزنٍ رائحٍ غادِ ... على البهاليل من أبناء عَبّادِ[2]

على الجبالِ التي هُدّت قواعدها ... وكانت الأرضُ منهم ذاتَ أَوتادِ

وكعبةٍ كانت الآمال تخدمها ... فاليومَ لا عاكفٌ فيها ولا بادِ[3]

يا ضيفُ أقفرَ بيتُ المكرمات فَخُذْ ... في ضَمِّ رَحْلك واجمعْ فَضْلةَ الزَّادِ

ويا مؤمِّلَ واديهمْ لِيَسْكُنَهُ ... خَفّ القطينُ وجَفّ الزرعُ بالوادي[4]

وأنت يا فارس الخيل التي جَعلتْ ... تختالُ في عُدَدٍ منهم وأَعدادِ[5]

أَلْقِ السّلاحَ وخلّ المشرفيّ فقد ... أَصبحتَ في لَهواتِ الضّيغم العادي[6]

لما دنا الوقتُ لم تُخْلف له عِدةٌ ... وكلّ شيءٍ لميقاتٍ وميعاد

كم من درارِيّ سَعْدٍ قد هَوتْ وَوَهَتْ ... هناكَ من دُرَرٍ للمجْدِ أَفرادِ[7]

---

(١) ترجم له في القلائد ٢٨٣، والمغرب ٤٠٩/٢، والمطرب ١٧٨، والمعجب ١٤٧ وفوات الوفيات ٣٢٤/٢، والوافي ٢٩٧/٤، والشذرات ٢٠/٤.

- ولقّب بابن اللبّانة، لأن أمّه كانت تبيع اللّبن. وهو من شعراء عصر الطوائف المُحسنين المجيدين.

(٢) البهلول السيد الجامع لصفات الخير.

(٣) العاكف: المقيم (في البلد) والبادي: الطارئ (الزائر، النازل). وفي البيت اقتباس من معنى ولفظ قرآني [الحج: ٢٥/٢٢].

(٤) القطين: الساكن. وخف: رحل.

(٥) العُدَة ج عُدَد الآلات. والأعداد ج عَدَد الأفراد (الناس).

(٦) المشرفيّ: السّيف (صفة غالبة) واللهوات ج لهاة وهي اللحمة المشرفة على الحلق في أقصى سقف الفم. والضيغم: الأسد. العادي: الهاجم الفاتك الوثّاب. وفي البيت كناية عن المصير المقضيّ به.

(٧) الدّراري: النجوم يقول غابت نجوم السعد. والدّرر جمع درّة. وهي: ضعف، هوى سقط ووقع.

إن يُخلَعُوا فبنو العباسِ قد خُلِعُوا ... وقد خلتْ قبل حِمْصٍ أرضُ بغدادِ[١]

حَمَوْا حريمَهُمُ حتى إذا غُلِبُوا ... سيقوا على نسَقٍ في حبلِ مُقتاد

حانَ الوداعُ فضجّت كل صارخةٍ ... وصارخ من مفدّاة ومن فاد[٢]

سارَتْ سفائنُهم والنَّوح يَصْحَبُها ... كأنّها إبلٌ يحدو بها الحادي[٣]

كم سال في الماء من دَمْعٍ وكم حَملت ... تلك القَطائعُ من قطعاتِ أكباد[٤]

من لي بكم يا بني ماء السماء إذا ... ماء السماء أبى سُقيا حشا الصادي[٥] ؟

وتدور هذه الأبيات على عدد من المحاور التي يتجاوب بعضها مع بعضها الآخر من:

ـ التفجّع على ما أصاب بني عَبّاد جملةً، والثّناء عليهم كلّهم فقد كانوا سادة كراماً؛

ـ ووصف خلوّ إشبيلية والأندلس منهم، وضياع ما كانوا يكرمون به الناس، ويواسونهم به، ويؤدونه إليهم؛

ـ والإشادة بالمعتمد بن عباد الذي قضى عليه بأن يتخلّى عن سيفه وأن يترجل عن جواده.

ـ ووصف لحظات هزيمة المعتمد، وصيرورته مع أهله أسرى ونقلهم...

ـ والتأسّي بما أصاب العباسيّين من مآسٍ ونكبات.

ـ والاستطراد ثانية إلى الوداع بين آل المعتمد ودورهم وقصورهم، وتوديع الناس لهم بالدّموع والزفرات.

---

(١) حمص: اسمُ مدينة مشهورة بالشام أُطلق في الأندلس على إشبيلية وهي المقصودة.

(٢) المفدّاة: التي يفدّيها الناس (كقول القائل فداك أبي وأمي!)، والفادي هو قائل تلك العبارات.

(٣) الحادي: الذي يحدو الإبل (يسوقها وينشد رجزاً وشعراً تأنيساً لها).

(٤) القطائع هنا أطلقت على السُّفن.

(٥) في إشارة إلى أصل بني عباد (عرب جنوبيون من لخم) وعرفوا باسم أمّ لهم تدعى ماء السَّماء أم المنذر بن امرئ القيس ملك الحيرة المتوفى نحو سنة ٦٠ قبل الهجرة ـ وماء السماء الثانية المطر ـ والصادي العطشان.

ـ يقول من يفعل مثل فعالكم ويجود مثل جودكم إذا انقطع جُود الأمطار؟

وقد أوصل الشاعر رسالة إلى القارئ والسامع من خلال المعاني المؤثرة والألفاظ الدالة والعاطفة القوية.

ـ ولابن اللبّانة أيضاً من قصيدة أوّلُها:

لكل شيء من الأشياء ميقاتُ ... وللمُنى في مناياهنّ غاياتُ

يقول فيها:

فانفضْ يديكَ من الدُّنيا وساكنها ... فالأَرْضُ قد أَقْفرَتْ والناسُ قد ماتوا[1]

وقل لعالمها السّفلي قد كتمتْ ... سريرةَ العالمِ العُلْويّ أَغماتُ![2]

طوتْ مظلّتُها لا بل مذلّتُها ... من لم تَزلْ فوقه للعِزّ راياتُ

من كانَ بين النّدى والبأسِ أَنْصلُه ... هنديّةٌ وعَطاياهُ هُنيداتُ[3]

رماهُ ـ من حيثُ لم تَسْتُره سابغةٌ ـ ... دهرٌ مصيباتهُ نَبْلٌ مصيباتُ[4]

وكان ملءَ عيان العَيْن تبصرهُ ... وللأَمانيّ في مَرْعاهُ مرعاةُ[5]

أنكرتُ إلاّ التواءاتِ القيودِ به ... وكيف تُنكر في الروضاتِ حيّاتُ؟[6]

حَسِبْتُها من قناهُ أو أعنّتِه ... إذا بها لثقافِ المجد آلاتُ[7]

درَوْهُ ليثاً فخافوا منه عاديةً ... عَذَرْتُهمْ! فلعدوى الليثِ عاداتُ[8]

---

(١) المغنى قريب من قول الشاعر العبّاسي:

فإذا ولّى أبو دُلفٍ ... ولّت الدنيا على أَثَرِهْ!

(٢) سريرة العالم العلوي: المعتمد، وشرحها د. فروّخ بقوله: خلاصة الوجود الإنساني.

(٣) الهندي: السيف (صفة غالبة) هنيدة جمع هنيدة: المئة من الإبل.

(٤) السابغة: الدّرع (صفة غالبة). مصيبات: الأولى مصائب، والثانية جمع مصيبة اسم فاعل من أصاب السَّهم (وغيرُه).

(٥) مرعاة: أي مَرْعى. يقول كان يحقق الآمال.

(٦) يقول كان المعتمد في سجنه على حال الإباء والعزّة قبل ذلك، وما أنكرتُ إلا تلك القيود التي قيّد بها (أي ما استغربت).

(٧) القنا جمع قناة (جسم الرمح، أو الرمح كله. والأعنة جمع عنان: لجام. والثقاف: القيد.

(٨) درَوْه: عرفوه. العادية: الوثبة.

ـ يقول من عادة الأسد: الهجومُ (والانتقام).

ـ ومن شعراء هذا الاتجاه: عبد المجيد بن عبدون الفِهري[1] اليابُري (نسبة إلى يابُرة: بلدة تبعد عن بَطَلْيَوْس نحو مئة كيلومتر) وهو أديب كاتب شاعر من العلماء. واشتهرت قصيدته التي رثى بها بني الأفطس حكام بَطَلْيَوْس، ودولتهم. وكان ابن عبدون مقرّباً منهم ثم صار كاتباً ووزيراً لديهم. وقد ضم المرابطون دويلة بني الأفطس إلى الأندلس الموحّدة تحت رايتهم وقتلوا حاكمها عمر (المظفر) وولديه فرثاهم ابن عبدون. ثم صار كاتباً عند المرابطين.

ـ وتبدأ قصيدته الشهيرة بقوله:

الدهر يفجعُ بعدَ العَيْن بالأثر ... فما البكاءُ على الأشباح والصُّوَر؟
أنهاكَ أنهاكَ لا أنهاكَ واحدةً ... عن نَوْمةٍ بين ناب الليث والظفرِ
فالدهر حربٌ وإن أبدى مسالمةً ... فالبيض والسّمر مثل البيض والسُّمرِ

وبعد عدّة أبيات يبدأ الشاعر بضرب الأمثال من الدّول والأمم والملوك الذين دالوا وذهب زمانُهم (ونسب ذلك إلى الليالي):

ما لِلّيالي أقال الله عثرتنا ... من اللّيالي وخانَتْها يدُ الغِيَرِ

ومنها:

وأوثقت في عُراها كل معتمدٍ ... وأشرقت بقذاها كلّ مُقْتدرِ
وروّعت كلّ مأمون ومؤتمنٍ ... وأسلمت كل منصور ومنتصر!

ومنها في الكلام على بني الأفطس، وحاكم بَطَلْيَوس (المظفر):

بني المُظفّر والأيام ما برحتْ ... مراحلاً والورى منها على سفَرِ
سحقاً ليومكم يوماً ولا حملتْ ... بمثله ليلةٌ في مقبل العُمرِ
من للأسرّة أو من للأعنّةِ أو ... من للأسنّة يهديها إلى الثغر؟

---

(١) ترجم له في قلائد العقيان ١٦٤، والصّلة برقم ٨٢١، والذخيرة ٦٦٨/٢، والمُغرب ٣٧٤/١، والبغية ٥٢٣، والمطرب ١٨٠، وصلة الصلة ٤٢، وفوات الوفيات ١١/٢.

مــن للبراعــة أو مـــن لليراعـــة أو مَـن للسـماحة أو للنّفـع والضـــرر؟
أو دفـــع كارثــــةٍ أو ردع آزفـــة أو قمـع حادثـةٍ تَعْيـا علـى القـــدر؟
ويح السماح وويح البأس لو سـلما وحسرة الدين والدنيـا علـى عُمَـرِ!
سقت ثرى الفضل والعباس هاميةٌ تُعْـزى إليهـم سماحــاً لا إلى المطــرِ
ثلاثــة مــا رأى العصــران مثلهــمُ فضلاً ولو عُزّزا بالشـمس والقمـرِ!

ـ وفي رثاء المُدن أو تصوير أحوالها البائسـة وظروفهـا السـيّئة مـا أنشـده ابـن حزم في تصوير حال قرطبة بعد الفتنة وما أصابها من التدّمير والخراب، وقصيدة أبي إسحاق الإلبيري في البكاء على مدينة إلبيرة.

ـ وقد تناول الكلام على ما أصاب قرطبة عدد من شعرائها مثـل ابـن دراج القسطلي، وابن شُهَيد؛ وابن حزم؛ الذي يقول:

بَـــكِ علــى قُرْطبـــة الزَّيْــــنِ فقـــد دَهَتْهـــا نظـــرةُ العَيْـــنِ
أَنْظَرَهــــا الدّهــــرُ بإســـــلافهِ ثـــم تقـــاضى جُمْلَـــةَ الدَّيْـــنِ
كـانت علـى الغايـة مـن حُسـنها وعيشـــها المســـتعذبِ اللّيْـــنِ
فــانعكس الأمــر فمــا إن تــرى بهـــا ســـروراً بـــين اثنـــينِ
فـــاغْدُ وودّعْهـــا وسِـــرْ ســـالماً إن كنـتَ أَزْمَعْـتَ علـى البَيْـنِ

فمصاب قرطبة عظيم، ولا يعلّل ـ لضخامتـه ـ إلا بالإصابة بـالعَيْن، وكـأن الدهر سكت عنها مدة طويلةً ومنع عليها الرّزايا والمصايب، ثم استردّ ما أسْلَفها إياه من الأمان والسَّلامة والدعـة والرخـاء! ولا ينسى الشـاعر أن ينصـح محبّهـا بمغادرتها ـ إن شاء ـ فلم تعد قرطبة التي يصفها على حالها الـتي كـان يعرفهـا... لقد صارت شبحاً ماثلاً بدلاً من قرطبة العظيمة.

ـ ويدخل في هذا الباب قصيدة فريدة في ديوان أبي إسحاق الإلبيري يذكر فيها مدينته إلبيرة[1] التي كانت حاضرة المنطقة كلّها، وكانت عروس تلك المدائن، النابضة بالحياة بكل ما في العبارة من معان...

وكان حكام إلبيرة من بني زيري قد تركوا إلبيرة أيام الفتنة ونقلوا حاضرتهم إلى غرناطة (القائمة في لحف جبل والدفاع عنها أسهل) فخربت إلبيرة، وهجرها أهلها إلى غرناطة وغيرها.

والقصيدة في ٢٣ بيتاً، مطلعها:

يُضَيَّعُ مَفْروضٌ ويُغْفَلُ واجِبُ ... وإنّي على أهل الزمانِ لعاتِبُ

أتندب أطلال البلاد ولا يُرى ... لإلبيرةٍ منهم على الأرض نادب؟

على أنها شمسُ البلاد وأنسها ... وكل سواها وحشة وغياهِبُ

يقول فيها:

لعهدي بها مُبْيَضّة اللّيل فاغتدتْ ... وأيّامُها قد سَوَّدَتْها النّوائبُ

وما كان فيها غَيْرُ بُشْرى وأنعمُ ... فلم يَبْق منها الآنَ إلاّ المصائبُ

فآهٍ أُلوفاً تقتضي عدد الحصَا ... على عهدها ما عاهدتها السحائبُ!

وهذا نوع من الوفاء للمكان قلّ أن نجد مثله في الشعر أو في الآثار الأدبيّة؛ وهو يذكّر بوقوف الشعراء القدامى على أطلال الديار بعد هجر أهلها لها، وعَيْثِ الرياح والرّمال والأمطار فيها!...

---

(١) قال في الروض المعطار: ٢٨ وكانت حاضرة إلبيرة من قواعد الأندلس الجليلة والأمصار النبيلة فخربت في الفتنة، وانفصل أهلها إلى مدينة غرناطة، فهي اليوم قاعدة كورها...

من شعراء رثاء المدن: أبو البقاء الرندي (٦٠١هـ - ٦٨٤هـ) وقصيدته النونية:

اشتهر الرّندي بقصيدته التي رثى فيها عدداً كبيراً من المدن الأندلسيّة التي سقطت لزمانه بيد العدوّ؛ وهي القصيدة التي اخترناها في الكتاب لتمثّل هذا النوع من الشعر الذي عبّر فيه أصحابُه عن مشاعر الأندلسيين بعد أن مالت شمس السيادة العربيّة الإسلامية في الأندلس إلى المغيب، وصَوَّر ما حلَّ بهم من ضروب العسف والهوان، وما تبدّل من وجه الأرض ووجه الزَّمان.

والشاعر هو صالح بن يزيد بن صالح.. بن شريف الرُّندي. وتختلف كنيته بين أبي البقاء وأبي الطَّيب. وهو مشهور في المشرق، وخصوصاً في هذا العصر بأبي البقاء.

وهو أديب، شاعر، ناقد. قضى معظم أيامه في مدينة رُنْدة - بضم الرّاء - واتصل ببلاط بني نصر (بني الأحمر) في غرناطة، وكان يفد عليهم ويمدحهم، وينال جوائزهم. وكان يُفيد - حين يدخل غرناطة - من مجالس علمائها، ومن الاختلاط بأدبائها، كما كان يُنشدهم من شعره أيضاً.

وقد ترجم للرُّندي، ابنُ عبد الملك المراكشي في (الذّيل والتكملة) قال في ترجمته: «وكان خاتمة الأدباء بالأندلس[٢]، بارع التصرّف في منظوم الكلام

---

(١) انظر كتابنا (أبو البقاء الرُّندي شاعر رثاء الأندلس) - دار سَعد الدّين - الطبعة الثانية.

(٢) أي: آخر أدبائها المشهورين المهمين لزمانه (القرن السّابع) ولقد ظهر في الأندلس أدباء وشعراء مذكورون بعد ذلك.

ومنثوره، فقيهاً، حافظاً.. وله مقامات بديعة في أغراض شتّى. وكلامه نظماً ونثراً مدوَّن». وقال ابن الزّبير في ترجمته - كما نقل ابن الخطيب -: شاعر مُجيد في المدح والغزل وغير ذلك. ووصف لسان الدين شعر الرُّندي فقال: «شعره كثير، سهل المأخذ، عذب اللفظ، غير مؤثر للجزالة».

لقد كان الرّندي شخصية مرموقة في عصره، علماً وأدباً وشعراً. واشتهر أمره في الأندلس، والمغرب، وكانت جوانبه متعدِّدة كما يظهر لنا من ثبت تواليفه. فمن كتبه: (الوافي في نظم القوافي)، وهو مؤلف نقدي بلاغي (مخطوط). وله تآليف في العروض والفَرائض وغيرها. وقد أثبت لسان الدّين في ترجمة الرُّندي قطعةً من كتاب له سَمّاه: (روض الأُنس ونزهة النفس)، وهو مخطوط اطّلعت عليه وأفدتُ منه.

لأبي البقاء الرّندي شعر جيِّد، ولم أقف في ترجماته على أنه جَمع ديوان شعره. وقد جَمعتُ له من مؤلفه (الوافي) ومن كُتب الأدب والتراجم والتاريخ قَدْراً صالحاً من الشّعر، يكوِّن (ديواناً) للشاعر[1].

- وله القصيدة الطنّانة في استنهاض الهمم والدعوة إلى الجهاد ورثاء ما سقط إلى زمانه من مدن الأندلس الكبرى.

جو النص:

منذ أن قامت دويلات الطوائف في الأندلس (القرن الخامس الهجري) وقوة الأندلسيين تتضاءل في الجزيرة أمام ازدياد قوة أعدائهم من الدول المجاورة. وقد طال عمر الإسلام في الجزيرة الأندلسية بسبب موجتين اثنتين قدمت الواحدةُ بعد الأخرى من المغرب: وهما دولة الْمُرابطين ودولة الموحدين.

---

(١) ترجمته في نفح الطّيب ١/٤٧، وأزهار الرياض ١/٤٧، والذيل والتكملة لابن عبد الملك المراكشي (بقية السفر الرابع ١٣٦٠ - ١٣٩)، والإحاطة في أخبار غرناطة لابن الخطيب.

- وانظر: تاريخ النقد الأدبي في الأندلس (د. محمد رضوان الداية) ٣٣٢ - ٤٧٠ الطبعة الثانية؛ و: أبو البقاء الرّندي - د. محمد رضوان الداية.

ومنذ أن انحلت دولة الموحدين ودبّ الضعف فيها من أوائل القرن السابع؛ والمدن الأندلسية تتساقط في أيدي الدول المجاورة في الحملة الصليبية على المغرب والتي عاصرت الحملات الصليبية على المشرق. فسقطت جزيرة ميورقة (٦٢٧ هـ) والبونت (٦٣٣ هـ) وقرطبة (٦٣٣ هـ) وبلنسية (٦٣٦ هـ) وشاطبة ودانية (٦٣٨ هـ) وبياسة (٦٣٣ هـ) ولورقة وقرطاجنة (٦٤٠ هـ) وإشبيلية (٦٤٦ هـ) ومرسية (٦٦٨ هـ)... وكانت من قبل قد سقطت مدن هامة مثل طليطلة (٤٧٨ هـ) التي فرَّط فيها المعتمد بن عباد ومثل شلب (٥٩٣ هـ) وغيرها من المدن.

وانحصرت دولة الإسلام في الأندلس منذ النصف الثاني من القرن السابع على القسم الجنوبي الشرقي من الجزيرة، تحت حكم بني نصر. وكان أميرهم الأول ثبَّت ملكه في تلك المقاطعة (وعاصمتها غرناطة) بعد التنازل عن عدد كبير من المدن والحصون. وانتفعت دولة بني الأحمر بالتعاون مع بني مرين في الدفاع عن الأندلس ومهاجمة العدو المشترك. لكن هذه الرابطة ضعفت في القرن التاسع.

- أدرك الشاعر هذا كله ورأى بعينه ما يجري في تلك الأرض من قتل الأندلسيين وسفك دمائهم، وارتداد المستضعفين منهم، ورأى امّحاء الحضارة العربية الإسلامية. وكان يخشى بلا شك أن يستفحل الأمر فأنشد قصيدته هذه، مُستثيراً الهمم، داعياً أهل المغرب، ومَنْ وراءهم إلى نجدة تلك البلاد المنكوبة.

(راجع تاريخ الأندلس في عصر المرابطين والموحدين): وعصر المرابطين والموحدين (جزآن) من تأليف الأستاذ عنان.

القصيدة:

أثبت المقرّي قصيدة الرُّندي في أزهار الرياض ١/٤٧ - ٥٠ وفي نفح الطيب ٤/٤٨٦ - ٤٨٨. ونبّه في الكتابين على زيادات طرأت على القصيدة، أضافوها

إليها بعد توالي سقوط المدن الأندلسية. وقد نشر هذه الزيادات الأستاذ المحقق عبد الله كَنّون - رحمه الله - في (صحيفة معهد الدراسات الإسلامية) في مدريد (المجلد السادس ١٣٧٨ - ١٩٥٨) نقلاً عن نسخة شخصية في خزانته من أزهار الرياض.

وفي كتاب (رَيْحانة الألبّا وزهرة الحياة الدنيا) لشهاب الدين الخفاجي (ت ١٠٦٩ هـ) ترجمة لأحد الأدباء واسمه يحيى القُرطبي، نسبت إليه هذه القصيدة النونية، ولكنها ليست مقصورة على أبيات الرّندي، بل فيها الزيادات التي نشرها الأستاذ كنّون. ومن ترجمة يحيى القرطبي المسجوعة في الكتاب نستطيع أن نتبين أنه أندلسي ممن صار يطلق عليهم اسم (الموريسكيين) - على الأغلب - وعبارة الخفاجي هي «السيد يحيى القرطبي: هو فيما بلغني روض مخصب ربيع من فرع بالفضل فريع، من فروع الدوحة العليّة العلويّة، وثمرة تلك الشجرة النبوية الباسقة بما سقاها من ماء الندى، والمورقة المثمرة بالعلم والهدى ... أسر بالأندلس في موقعة أسرت أفراح القلوب، وشقّت قلوب المؤمنين قبل الجيوب، فأصبح في حال تَعُدّ المنايا أمانيا، ويرى لضعف الدين الموت طبيباً شافياً، إذ عثرت خيول الفتن والنقم بذوي المروءة والنعم، فأرسل قصيدة نعى بها الإسلام، ونادى ملوك الروم[1] وعلماءها الأعلام فلم يجد بها صفيّاً، يقول له: لقد أسمعت لو ناديت حيّاً. وذلك في عهد السلطان سليمان الذي دخل في خبر كان، وهي هذه: لكل شيء...». ريحانة الألبا ١/٣٧٠ - ٣٧٤ طبعة الأستاذ عبد الفتاح الحلو (مصر - عيسى البابي الحلبي).

والقصيدة التي تحقق المقري من نسبتها، وعدد أبياتها إلى الرُّندي تبلغ ٤٣ بيتاً. وهي حيث نسبت إلى يحيى القرطبي ٦١ بيتاً. ويظهر لي أن السيد يحيى القرطبي أضاف زيادات على قصيدة الرّندي ليحكي حالَ الأندلس بعد سقوطها كلها، وليحرّض على الجهاد لاستنقاذها. ولعلّ مما يدعم هذا الرأي أنه رفعها

---

(١) يريد الأتراك العثمانيين.

إلى أكبر ملوك الإسلام لزمانه، سلطان الدّولة العثمانية، وقد توسّم المقري شيئاً قريباً من هذا النفح والأزهار:

والقصيدة هي:

لِكُلِّ شيءٍ إذا ما تَمَّ نُقصانُ ... فلا يُغرَّ بطيبِ العيشِ إنسانُ
هي الأمور كما شاهدتَها دولٌ[(١)] ... من سرَّه زمنٌ ساءتهُ أزمانُ
وهذه الدّار لا تُبقي على أحدٍ ... ولا يدومُ على حالٍ لها شانُ
يمزِّقُ الدهرُ حتماً كلَّ سابغةٍ ... إذا نَبت مشرفيّاتٌ وخرصانُ[(٤)]
وينتضي كلّ سيفٍ للفناء ولو ... كان ابن ذي يزنٍ والغمد غمدانُ[(٥)]
أين الملوك ذوو التيجان من يَمنٍ ... وأين منهم أكاليلٌ وتيجانُ
وأين ما شادَهُ شدّادُ في إرَمٍ[(٢)] ... وأين ما ساسه في الفرسِ ساسانُ[(٦)]
وأين ما حازهُ قارونُ من ذَهبٍ[(٣)] ... وأينَ عادٌ وشدّادٌ وقحطانُ[(٧)]
أتى على الكُلِّ أمرٌ لا مَردَّ له ... حتى قضوا فكأنَّ القومَ ما كانوا
وصار ما كانَ من مُلكٍ ومن ملكٍ ... كما حكَى عن خيال الطَّيف وسنانُ
دار الزّمانُ على دارا وقاتِلِهِ ... وأمَّ كِسْرى فما آواهُ إيوانُ[(٨)]

---

(١) دال الزمان: انقلب من حال إلى حال. ودول ج دولة: انقلاب زمان.

(٢) نقل البكري في المقصود بإرم عدداً من الأقوال منها أنها دمشق، والإسكندرية: ونقل أنه «وجد بالإسكندرية حجر نقش فيه: أنا شداد بن عاد الذي نصب العماد..» البكري ٤٠٨/٢ - ٤٠٩. ووردت الكلمة هكذا «أيرم» في الكتاب نفسه ٢١٥/١

(٣) قارون: هو الذي ذكره الله تعالى في سورة القصص: ويضرب به المثل في كثرة المال وعظيم الكنوز.

(٤) السابغة: الدرع الكامنة. المشرفيات: السيوف المنسوبة إلى المشارف، وهي مشارف الشام: قرى من أرض العرب تدنو من الريف، منها السيوف المشرفية. والخرصان: جمع خرص، وهي الرمح.

(٥) سيف بن ذي يزن: من ملوك اليمن، وغمدان قصر كان له. قال البكري: هو (قصبة صنعاء). انظر: معجم ما استعجم ١٠٠٢/٣

(٦) ساسان: أبو طائفة عظيمة من ملوك الفرس.

(٧) عاد: أبو رهط من العرب البائدة.

(٨) هو دارا الأصغر بن دارا الأكبر، قتله أصحابه في معركته مع الإسكندر المكدوني (الكامل لابن الأثير ٢٨٢/١). الإيوان: هو إيوان كسرى الذي بالمدائن، مدائن كسرى. قال ياقوت: إنه قصر الأكاسرة بالمدائن، وإنه تعاون على بنائه عدد من ملوكهم. وانظر ما ذكره ابن الأثير (الكامل ٤٨٠/١).

كأنّما الصّعبُ لم يَسْهُلْ له سَبَبٌ ... يَوماً ولا مَلَكَ الدُّنيا سليمانُ
فَجائعُ الدَّهرِ أنواعٌ منوَّعةٌ ... وللزَّمانِ مسرَّاتٌ وأحزانُ
وللحَوادثِ سُلوانٌ يُهَوِّنُها ... وما لِما حلَّ بالإسلامِ سُلوانُ
دهى الجزيرةَ أمرٌ لا عزاءَ لهُ ... هوى له أحدٌ وانهدَّ ثهلانُ(١)
أصابها العينُ في الإسلامِ فارتُزئت ... حتى خلَتْ منه أقطارٌ وبُلْدانُ
فاسْأل بلَنْسيةً ما شأنُ مُرسيةٍ ... وأينَ شاطِبةٌ أم أينَ جَيّانُ
وأينَ قُرطبةٌ دارُ العُلومِ فكم ... من عالمٍ قد سَما فيها له شانُ
وأين حِمصٌ وما تحويهِ من نُزَهٍ ... ونهْرُها العذبُ فياضٌ وملآنُ*

---

(١) أحد: جبل قريب من المدينة. وثهلان: جبل باليمن.

* زاد في الريحانة بين هذين البيتين عدداً آخر من الأبيات، هي من زيادات يحي القرطبي على القصيدة، وهي:

كذا طليطلة دار العلوم فكم ... من فاضل قد سما فيها له شان
وأين غرناطة دار الجهاد وكم ... أسد بها وهم في الحرب عقبان
وأين حمراؤها العليا وزخرفها ... كأنها في جنان الخلد عدنان

قواعد كن.. (البيت ٢٠ في النص)

والماء يجري بساحات القصور بها ... قد حفّ جَدْوَلَها زهرٌ وريحانُ
ونهرها العذبُ يحكي في تسلسلهِ ... سيوفَ هندٍ لها في الجوّ لمعانُ
وأين جامعها المشهور قد تليت ... في كلّ وقت به آيٌ وفرقانُ
وعالمٌ كان فيه للجهول هدىً ... مدرِّسٌ وله في العلم تبيانُ
وعابدٌ خاضعٌ لله مبتهلٌ ... والدمعُ منه على الخدين طوفانُ
وأين مالقةٌ مَرسى المراكب كم ... أرست بساحتها فلكٌ وغربانُ
وكم بداخِلها من شاعرٍ فطنٍ ... وذي فُنونٍ له حذقٌ وتبيانُ
وكم بخارجها من منزهٍ فرجٍ ... وجنةٍ حولها نهرٌ وبستانُ
وأين جارتُها الزهرا وقُبَّتها ... وأين يا قوم أبطالٌ وفرسانُ
وأين بسطةُ دارُ الزعفران فهل ... رأى شبيهاً لها في الحُسنِ إنسانُ
وكم شجاعٍ زعيمٍ في الوغى بطلٍ ... بدا له في العدا فتكٌ وإمعانُ
كم جندلت يده من كافرٍ فغدا ... تبكيه من أرضهِ أهلٌ وولدانُ

وحمص هي مدينة إشبيلية - سميت كذلك لنزول جند حمص الشام بها - وهي عند نهر الوادي الكبير.

كأنّما الصّعبُ لم يَسْهُلْ له سبَبٌ   يَوماً ولا مَلَكَ الدُّنيا سليمانُ
فَجائعُ الدَّهرِ أنواعٌ منوَّعةٌ   وللزَّمانِ مسرَّاتٌ وأحزانُ
وللحَوادثِ سُلوانٌ يُهَوِّنُها   وما لما حلَّ بالإسلامِ سُلوانُ
دهى الجزيرةَ أمرٌ لا عزاءَ لهُ   هوى له أحدٌ وانْهدَّ ثهلانُ(١)
أصابها العينُ في الإسلامِ فارتُزئت   حتى خلَتْ منه أقطارٌ وبُلْدانُ
فاسْأل بلَنْسيةً ما شأنُ مُرسيةٍ   وأينَ شاطِبةٌ أم أينَ جَيّانُ
وأينَ قُرطبةٌ دارُ العُلومِ فكم   من عالمٍ قد سَما فيها له شانُ
وأين حِمصٌ وما تحويهِ من نُزَهٍ   ونهْرُها العذب فياضٌ وملآن*

---

(١) أحد: جبل قريب من المدينة. وثهلان: جبل باليمن.

* زاد في الريحانة بين هذين البيتين عدداً آخر من الأبيات، هي من زيادات يحيى القرطبي على القصيدة، وهي:

كذا طليطلة دار العلوم فكم   من فاضل قد سما فيها له شان
وأين غرناطة دار الجهاد وكم   أسد بها وهم في الحرب عقبان
وأين حمراؤها العليا وزخرفها   كأنها في جنان الخلد عدنان

قواعد كن.. (البيت ٢٠ في النص)

والماء يجري بساحات القصور بها   قد حفّ جَدْوَلها زهرٌ وريحانُ
ونهرها العذبُ يحكي في تسلسلهِ   سيوفَ هندٍ لها في الجوّ لمعانُ
وأين جامعها المشهور قد تليت   في كلّ وقت به آيٌ وفرقانُ
وعالمٍ كان فيه للجهول هدىً   مدرّسٌ وله في العلم تبيانُ
وعابدٌ خاضعٌ لله مبتهلٌ   والدمعُ منه على الخدين طوفانُ
وأين مالقةٌ مَرسى المراكب كم   أرست بساحتها فلكٌ وغربانُ
وكم بداخِلها من شاعرٍ فطنٍ   وذي فُنونٍ له حذقٌ وتبيانُ
وكم بخارجها من منزهٍ فرجٍ   وجنةٍ حولها نهرٌ وبستانُ
وأين جارتُها الزهرا وقُبّتها   وأين يا قوم أبطالٌ وفرسانُ
وأين بسطةُ دارُ الزعفران فهل   رأى شبيهاً لها في الحُسنِ إنسانُ
وكم شجاعٍ زعيمٍ في الوغى بطلٍ   بدا له في العدا فتكٌ وإمعانُ
كم جندلت يده من كافرٍ فغدا   تبكيه من أرضهِ أهلٌ وولدانُ

وحمص هي مدينة إشبيلية – سميت كذلك لنزول جند حمص الشام بها – وهي عند نهر الوادي الكبير.

قواعدٌ كُنّ أركانَ البلادِ فما ... عسى البَقاءُ إذا لم تبقَ أركانُ

تَبكي الحنيفيّةُ البيضاءُ من أسفٍ ... كما بكى لفراقِ الإلفِ هيمانُ[1]

على ديارٍ من الإسلامِ خاليةٍ ... قد أُسلمتْ ولها بالكفرِ عمرانُ

حيثُ المساجدُ قد صارتْ كنائسَ ما ... فيهنّ إلاّ نواقيسٌ وصلبانُ

حتى المحاريبُ تَبكي وهي جامدةٌ ... حتى المنابرُ تَرثي وهي عيدان[2]

يا غافلاً وله في الدّهرِ موعظةٌ ... إن كنت في سِنة فالدهرُ يقظانُ

وماشياً مَرحاً يُلهيه مَوطنهُ ... أبعد حمصٍ تغرُّ المرءَ أوطانُ

تلك المصيبةُ أنستْ ما تقدّمها ... وما لَها مع طولِ الدّهرِ نسيانُ

يا أيها الملكُ البيضاءُ رايتهُ ... أدركْ بسيفك أهلَ الكفرِ لا كانوا[3]

يا راكبينَ عتاقَ الخيلِ ضامرَةً ... كأنها في ظلالِ النقعِ نيرانُ

وحاملينَ سُيوفَ الهِنْدِ مُرْهفةً ... كأنّها في مجالِ السّبق عقبانُ

وراتعينَ وراء البحرِ في دعَةٍ ... لهم بأوطانهم عزٌّ وسُلطانُ

أعندكَم نبأٌ من أهلِ أندلسٍ ... فقد سرى بحديث القوم رُكبانُ

كم يستغيث بنو المستضعفين وهمْ ... أسرى وقتلى، فما يهتزُّ إنسانُ

ماذا التقاطعُ في الإسلامِ بينكمُ ... وأنتم يا عبادَ الله إخوانُ

ألا نفوسٌ أبيّاتٌ لها هِمَمٌ ... أما على الخيرِ أنصارٌ وأعوانُ

يا من لذلةِ قومٍ بعدَ عزّهمُ ... أحالَ حالَهم كفرٌ وطغيانُ

بالأمسِ كانوا مُلوكاً في منازلهمْ ... واليومَ هم في بلاد الكفرِ عُبدانُ

فلو تراهم حَيارى لا دليلَ لهمْ ... عليهمُ من ثيابِ الذلِّ ألوانُ

---

(١) الحنيفية: الإسلام.

(٢) عيدان ج عود: الغصن بعد أن يقطع، الخشب.

(٣) هذا البيت قريب من مطلع قصيدة ابن الأبار التي دعا فيها المستنصر الموحدي صاحب إفريقية (تونس) لإنقاذ بلنسية من يد ملك أرغون (جاقمة) ومطلع تلك القصيدة:

أدرك بخيلك خيل الله أندلسا ... إن السبيل إلى منجاتها درسا

وقد احترنا منها في ترجمته.

ولو رأيتَ بُكاهم عند بيعهمُ ... لهالك الأمرُ واستهوتْك أحزانُ
يا ربّ أمّ وطفلٍ حيلَ بينهُما ... كما تَفرّقُ أرواحٌ وأبدانُ
وطفلةٍ ما رأتها الشمسُ إذ برزتْ ... كأنما هي ياقوتٌ ومرجانُ[1]
يقودُها العلجُ للمكروهِ مُكرهةً[2] ... والعينُ باكيةٌ والقلبُ حيرانُ[3]
لمثل هذا يذوبُ القلبُ من كمدٍ ... إن كان في القلبِ إسلامٌ وإيمان

(١) الطفلة: الرخصة الناعمة. ورواية النفح: وطفلة مثل حسن الشمس إذ طلعت

(٢). العلج: ارجل الضخم من أهل العجم..

(٣) بعد هذا البيت من ريحانة الألبا، من الزيادات على النص:

هل للجهاد بها من طالب فلقد ... تزخرفت جنة المأوى لها شان

وأشرف الحور والولدان من غرف ... فازت لعمري بهذا الخير شجعان

ثم الصلاة على المختار من مضر ... ما هبّ ريح صبا واهتز أغصان

الموشحات الأندلسية

يقترن اسم **الموشّح**[1] حيثما ذكر باسم الأندلس، باعتبار ظهور الموشح ونشأته وتطوّره، واكتماله في الأندلس، ولأن المشرق استقبل هذا الفن الوافد بعد ظهوره في الأندلس بمدّة طويلة، كما استقبل **فنَّ الزَّجل** أيضاً. والموشح، والزَّجل أخوان؛ وإن كان للزجل سمات خاصّة به تميّزه عن الموشّح.

واسم الموشّح، هذا اللون الخاصّ من النَّظم أُخذ من الوِشاح. والوشاح نوع من الزينة كانت المرأة تتزيّن به.

ونقرأ في لسان العرب (و ش ح): أن الوشاح من حَلْي النساء، وأنه: **خَيْطان، ينظم فيهما اللؤلؤ والجوهر، يخالَفُ بينهما، ويُعطف أحدهما على الآخر.**

والموشّح ـ هذا النظم المخصوص ـ مقاربٌ لذلك الوشاح في الشكل كما شابهه في التسمية. فهو يتألف من قُفل (تتعدّد أجزاؤه) ومن غصن يليه (تتعدّد أجزاؤه أيضاً)، وتتكرّر الأقفال والأغصان. وبينما **تتّحد** أجزاء الأقفال التالية مع الأجزاء المقابلة لها في القفل الأول وزناً، وقافيةً؛ **تختلف** أجزاء الأغصان التالية مع أجزاء الغُصن الأوّل في قافيته. فلكل غصن قافية تتّحد في أجزائه؛ على أنها تتحد في الوزن.

---

(١) ينظر الزّجل في الأندلس د. عبد العزيز الأهواني. وفنّ التوشيح د. مصطفى عوض الكريم، وفي أصول التوشيح د. سيدي غازي؛

ـ وفي المصادر القديمة دار الطّراز لابن سناء الملك؛ والمقتطف من أزاهر الطرف لابن سعيد؛ وجيش التّوشيح للسان الدّين بن الخطيب.

فالموشحة إذن: تتوالى فيها الأقفال: المتحدة وزناً، وقوافي؛ وتتوالى بين كل قفلين الأغصان التي تتحد في الوزن، ويكون لكل غصن قوافيه الداخليّة الخاصّة به.

متى ظهر الموشّح؟

تتّفق المصادر الأندلسية والمشرقية على أنّ الموشّح:

- فنّ أندلسي ظَهر في تلك البلاد، ونشأ، واكتمل؛

- وأنّ مخترعه أندلسيّ؛

- وأنّه نشأ برعاية الموسيقى، أو في جوٍّ من الموسيقى والغناء؛ ولعل مجيء زرياب (ت: ٢٣٨هـ) وإنشاءه مدرسة موسيقية مهمّة كان ذا أثر في تهيئة الجوّ لظهور الموشح في فترة لاحقة من القرن الثالث.

ويُذكر اسم: مقدّم بن معافى القَبْرِيّ الأندلسي[1] باعتباره الوشاح الأول الذي قفز بالنظم تلك القفزة النوعية الخاصّة، فنتج عن مبادرته وتجديده هذا اللون من النظم الذي سُمّي بـ (الموشّح).

ولم يذكر أحد من مؤرّخي الأدب الوشاح أو الناقد الذي سمّى هذا النّظم بـ (الموشح). ويبدو أن الاسم وضع مع اختراع الفنّ أو في وقت قريب جدّاً منه.

ووفاة مقدم بن معافى كانت سنة (٢٩٩هـ) تقديراً، أي في أواخر القرن الثالث، وقدّر د. فروخ ولادته بنحو (٢٢٥هـ) تقريباً. ونفهم من هذا أن الموشّح ظهر في النّصف الثاني من القرن الثالث الهجري في مدينة قَبْرة، أو مدينة قرطبة.

---

(١) نسبته إلى قَبْرَة مدينة بينها وبين قرطبة ثلاثون ميلاً (الروض المعطار: ٤٥٣) ومقدّم شاعر اشتهر بالمدح، وكان ممن مدحهم الأمير عبد الله والقائد سعيد بن جودي (له ترجمة في هذا الكتاب) ولم يبق من شعره إلا النتف اليسيرة. ولم يبق شيء من موشّحاته المنسوبة إليه.

أصل الموشح:

اختلف مؤرّخو الأدب اختلافاً كبيراً في هذا العنوان: أصل الموشّح. وحشد كل ذي رأي منهم حججاً وبراهين أو ما يُشبه الحجج والأدّلة؛ والاختلاف بينهم واسع.

١) فريق منهم يقول: إن الموشح هو تطوّر لأنواعٍ من النظم معروفة في الأدب العربيّ قبل ظهور الموشّح. ودور الأندلسيين، عند هذا الفريق ليس أكثر من التنظيم والترتيب، أو إعادة التنظيم بما يعطي هذا الشّكل الجديد.

وأصحاب هذا الرأي لا يتّفقون على مُعْطيات واحدة، وحجج معيّنة، وهم يقاربون، ويحاولون.

وأقف عند قطعةٍ لديك الجن الحمصي أوردها د. الشّكعة[1] في دلائله على مشرقية الموشّح. يقول لديك الجنّ:

قـــولي لطيفـــك ينثـــني　　عـن مضجعـي عنـد المنـامْ[2]

(عند الرقاد. الهجوع. الهجودْ. الوَسَنْ)

فعســى أنـــام فتنطفـــي　　نـــارٌ تـــأجّجُ في العظـــامْ

(في الفؤاد. الضلوع. الكبودْ. البدنْ)

جســد تقلّبـــهُ الأكُـــفّ.....　　علـــى فـــراشٍ مـــن ســـقامْ

(من قتاد. دموع. وقودْ. حَزَنْ)

أمّـــا أنـــا فكمـــا علمـــتِ　　فهـــل لوصلـــك مـــن دوامْ

(من معاد. رجوع. وجودْ. ثمنْ)

قال د. الشكعة: ((إن تعديلات طفيفة يمكن إجراؤها في هذه المنظومة بحيث تُصبح موشحة أندلسيّة بمسمّيات أجزائها من أقفال وأغصان وأسماط وأدوار

(١) الأدب الأندلسي موضوعاته وفنونه ٣٩٤-٣٩٥.

(٢) المراد أنك تستطيع تبديل كلمة القافية فتصبح القطعة دالية أو عينية أو نونيّة.. وهذا تفنّن من الشاعر في تبديل كلمة القافية (حرف الرويّ) من باب الاتساع اللغوي.

وإنهائها بخرجة مُعربة)). وهذا الرأي لا يتّفق مع الموشّح؛ وهذا الشعر لا يقترب منه ولا علاقة له به كما هو ظاهر!

ورأي هذا الفريق يغفل عن حقائق وثوابت في نسيج الموشّحة وموضوعها مثل الخَرْجَة؛ وبناء الموشحة من أقفال (ومطلع) و (خرجة) وأغصان: تتوالى على نظام معين؛ وتطور الموشحة ـ مع الزمن ـ من الالتصاق بالموسيقى والغناء والطبيعة وذِكر المجالس إلى أغراض أُخرى كالمديح، بل الوصول بأغراض الموشحة إلى الرثاء والهجاء! وشيء آخر مهمّ أيضاً هو انتقال الموشح من موشح غير شعري كما نشأ إلى موشح شعري.

٢) وفريق قال: إن الموشّحات بُنيت على أغانٍ جيلقيّة (إسبانيّة) كانت النساء الجيليقيات في البُيوت العربية يغنينها (وقد اختلطت الأجناس بالزّواج). وإنّ هؤلاء الجيلقيّات كنّ يغنّين بلغتهن في الحفلات، ويهدهدن الأطفال، ويُسَرّين عن أنفسهنّ في ساعات العمل. وهي النظرية التي عرفت باسم المستشرق ريبيرا.

ويدخل في هذا آراء أُخرى أَرجعت الموشّح إلى غير العرب، ووجد من يقول: إن الموشّح مأخوذ عن التّروبادور والجونكلير اللذين كانا شائعين في منطقة البروفانس. والصّواب أن هؤلاء أخذوا عن أصحاب الموشحات العربية؛ لأن الموشح أسبق من ظهور أولئك الجوّالين من الإسبان والفرنسيّين بأكثر من قرنين من الزّمان.

٣) وقدم الدكتور عبد العزيز الأهواني[١] نظرية اطمأنّ إليها، وقدّم عليها الأدّلة والبراهين من أخبار الموشحات والأزجال، ومن معالجة خَرْجات عددٍ كبير من الموشّحات والأَزجال الأندلسيّة.

وهذا الرأي يقول: إن الموشح نشأ في الأندلس استجابةً لدواعٍ مُوسيقية غنائية، وبالاحتكاك مع الأغاني الشعبية الأندلسية[٢].

(١) الزجل في الأندلس ـ عبد العزيز الأهواني ـ معهد الدراسات العربية، القاهرة، ١٩٥٧.

(٢) ممّن أخذ بهذه النظرية الدكتور أحمد هيكل في كتابه الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة.

ونظرية الدكتور الأهواني تجمع بين الموشح والزّجل في صعيد واحد؛ فقد قال[١] : ((إنه يميلُ إلى القول بوجود أصل مشترك ظهر في البيئة الأندلسيّة منذ عهودها القديمة كان له الفضل في ظهور التّوشيح، وكان له أثر في استقلال الزجل وتطوّره، ذلك الأصل هو الأغنية الشعبية... وهي أغنية مصوغة في لغة عامية عربية، وفي لغة روميّة كان يتحدّث بها كثير من المسلمين في تلك البلاد منذ دخل الإسلام إليها... فالوشّاح ثم الزجّال استفاد من هذا الغناء الشعبي، واستغله ليخرج فناً جديداً يغزو البيئات المثقفة، ويوفق بين ما ألفته هذه البيئات من شعر عربي قديم، ومن تقاليد أدبية، وبين ما عرفته البيئة الشعبية من فنّ كان له سلطان في الحياة الخاصة لهؤلاء المثقفين))[٢] .

تطوّر الموشّح:

١ ـ يذكر مؤرخو الأدب الأندلسي من قديم ثلاثة أسماء أسهمت في نشأة الموشح، وتطويره من جهة أقفاله، ثم تطويره في أغصانه. أما النشأة فكانت على يد مقدّم من معافى القَبْري: وكان يجعل اللفظ العامي أو العجمي مَرْكزاً (والمركز صار يُسَمّي القفل). فالوشّاح الأول إذن كان يَصْنَعُ الخَرْجَة بالعاميّة أو العَجميّة الأندلسية ويؤسّس عليها سائر الموشّحة باللُّغة الفُصحى. وكانت

---

(١) الزجل في الأندلس ٣.

(٢) في كتاب الحوادث والبدع للطرطوشي ١٤٠، إشارات إلى اختلاط عادات النّاس، وحضور العرب والمسلمين احتفالات شعبية بمناسبات مختلفة، قال: ((من البِدَع اجتماع الناس بأرض الأندلس على ابتياع الحلوى ليلة سبع وعشرين من رمضان وكذلك على إقامة يمّير (رأس السنة الميلادية/والاحتفال بسنة جديدة) بابتياع الفواكه كالعجم، وإقامة العَنْصَرة، وخميس إبريل بشراء المجبّنات والإسفنج (أنواع من الحلوى) وهي من الأطعمة المُبتدعة. وخروج الرجال جميعاً أو أشتاتاً مع النساء مختلطين للتفرّج، وكذلك يفعلون في أيام العيد، ويخرجون للمصلّى ويقمن فيه الخيم للتفرّج لا للصّلاة...)).. فهذه احتفالات مشتركة...

ـ وسجّل ابن حزم تبديل العامّة للألفاظ العربية، وظهور اللهجات الأندلسية وضرب أمثلة من تبديل الأندلسيين العنب إلى العينب، والسّوط إلى أسطوط، وثلاثة دنانير إلى ثلثدا، وهكذا (الإحكام في أصول الأحكام لابن حزم) ١/٣١-٣٢/دار الآفاق بيروت ١٩٨٣).

إذن ظهرت عامية أندلسية لها خصائصها، بل هي لهجات متعدّدة بحسب المناطق، وتوزّع الأقاليم.

الموشّحات الأُولى بسيطة. وكان أكثرها ـ كما قال ابن بسام في (الذخيرة) ـ يُبنى على الأعاريض المُهملة غير المُستعملة[١] ، وهي الأعاريض التي أشار إليها الخليل في الدوائر العروضية الخمس.

وكما كان الشاعر يفكّر في وزنه وقافيته، أو يتحسّس ذلك برياضة الذّهن، ومقاربة المناسب، كان الوشاح يبحث عن الخرجة المناسبة لموشّحته، لتكون الأساس الذي يبنى عليه موشّحته.وهذا يعني انطلاق الوشاح من منطقة أُخرى غير التي كان الشاعر ينطلق منها. ولنقل ـ إذن ـ إنها خصوصية الموشّح، واستقلاليته الفنيّة.

ـ وليس بين أيدينا موشحات من هذه الفترة.

٢ ـ وبعد مقدّم بن معافى القبري ومن سار على خطاه في صنعة الموشحة جاء يوسف بن هارون الرّمادي المتوفى ٤٠٣ وهو شاعر ووشّاح فكان ((أوّل مَنْ أكْثَرَ في الموشّحة من التضمين في المراكز)) أي هو أول من أحْدَث في الموشحة تعدّد الأجزاء أو الأشطار في الأقفال.

ويقوم عبادة بن ماء السماء (ت ٤١٩هـ) بمهمّة أخرى في تطوير صناعة الموشح، وذلك بالإكثار من التضمين في الأغصان، أو: ((دقة التجزئة في أشكال الأغصان)) وبذلك تمّت للموشّحة صورتها التي حَملتها العصور التالية[٢] .

وقد استغنى الوشاح الأندلسي عن استعمال الأعاريض المهملة، وانتقل إلى الإبداع الخاص، وفق ذوقه، وما يختاره من (إيقاع). ومن هنا يَصْعُب أن نَحْصُر

---

(١) مثلاً بحر الطويل من دائرة المختلف ووزنه فعولن مفاعيلن أربع مرّات على شطرين. ويُستخرج من هذه بحر مهمل، تفعيلاته عكس تفعيلات الطويل، ويجيء على هذه الصورة:

مفاعيلن فعولن مفاعيلن فعولن مفاعيلن فعولن مفاعيلن فعولن

ونظم بعضهم على هذا الوزن المهمل فقال:

لقد أبدت سليمى غداة الجذع وجهاً كبدر التمّ حُسْناً وضوء الشمس نورا

(٢) عصر الدول والإمارات الأندلس ـ د. شوقي ضيف ١٥٠.

الأوزان، أو الإيقاعات التي يستطيع الوشّاح أن يخترعها لكل موشحة من موشّحاته. ولم يعد مُجْدياً أن نبحث عن الوَزن الذي يستعمله الوَشّاح إلا أن يكون المراد التنبّه إلى ما اختار، والانسجام مع نغماته التي اختارها وإيقاعاته التي صنعها لنفسه بنفسه، أو اختارها واقتبسها من وشاح آخر.

ـ ونضرب مثلاً من موشحة الأَعْمَى التُطِيلي(١) :

ضـــاحكٌ عـــن جُمـــان	ســـافرٌ عـــن بَـــدْر
ضـــاق عنـــه الزمـــان	وحـــواه صـــدري

مطلع/قفل أَوّل.

آه ممـــا أجِـــدْ	شَـــفّني مـــا أجِـــدُ
قـــام بـــي وقعـــدْ	بـــاطشٌ متئـــدُ
كلمـــا قلـــت قـــدْ	قـــال لي: أيـــن قَـــدُ ؟!

غصن أَوّل.

فوزن القفل:	فاعلن فاعلان	فاعلن مفعولن
ووزن الغصن:	فاعلن فاعلن	فاعلن مستعلن

ولا تدخل هذه الأوزان في الأعاريض المهملة، ولكنّها تشكيل خاص من الوشّاح اختاره، وصنع عليه موشّحته.

ولا ننسى أن ابن بسام أشار إلى هذا حين قال: إن أكثر الموشحات على غير أَعاريض العَرب. أي على غير الأوزان والبحور الخليليّة.

(١) انظر إشارة إليه في (شعر المديح) من هذا الكتاب. وهذه الموشّحة في (جيش التوشيح) للسان الدين ابن الخطيب ١٦-١٨.

وقد تُبنى الموشّحة على بحر من بحور الخليل المعروفة، ثم يأتي الوشّاح فيضيف كلمة أو أكثر في بعض الأجزاء أو الأشطار، فيخرج الموشح عن كونه موشحاً شعرياً، ليقال فيه: إنه موشح غير شعري.

ومثال ذلك قول ابن بقي:

صبرت والصبر شيمة العاني. ولم أقل للمُطيل هجراني. مُعَذّبي كفاني!

فقول الوشاح: (معذّبي كفاني) خرج بالموشّحة عن كونها شعريّة. فالبحر دون تلك الإضافة هو المنسرح.

ـ وقد يزاوج الوشاح بين الوزن الشعري في جانب والوزن غير الشعري في جانب آخر من الموشح، مِثاله موشحةٌ لابن خاتمة الأنصاري[1] جاءت الأقفال غير شعريّة بينما جاءت الأغصان على وزن بحر المجتّث: وتبدأ الموشحة هكذا:

هبّت من النَّوم عَيْنُ ... تومي بلحظ رقيع ... إلى اقتبال الربيع

رقّتْ حواشي الزّمانِ ... والفصلُ يا صاح ثانِ

فالقُفل لا يتّسقُ وزنه مع أي بحر معروف. والغُصن من وزن بحر المُجتثّ.

ولعُبادة الموشحةُ المشهورةُ[2] ؛ ومطلعها (القفل الأول: الرَّأس: المَطْلَع):

مَنْ وَلي ... في أُمَّةٍ أمراً ولم يعدلِ

يُعْزلِ ... إلا لحاظ الرشأ الأكحلِ

ويأتي الغصن الأول على هذه الصُّورة:

جُرْتَ في ... حكمكَ في قتليَ يا مسرفُ

فانصفِ ... فواجبٌ أن يُنصَفَ المنصفُ

وارأفِ ... فإنّ هذا الشوق لا يَرْأفُ

---

(١) ديوان ابن خاتمة (ط دار الفكر) ١٩٤.

(٢) الموشحة تامّة في فوات الوَفيات لابن شاكر ١٥٦/٢

ويتكرَّر في القُفل الثاني كل شيء: عدد الأشطار، وأوزانها، والقوافي كلّهـا. ثم يجيء الغصن الثاني فيتكرر عدد الأشطار وأوزانها، أمّـا القـوافي **فتختلـف مـن غصن إلى آخر** برغبة الوشاح واقتراحه وذوقه. وهـا هـو ذا القفـل الثـاني، يردفـه الغصن الثاني:

علّــــــــــلِ   قلــــبي بــــــذاك البـــــارد السَّلْســــلِ

ينجلـــــــــي   مــــا بفــــؤادي مــــن جــــوًى مُشْـــعَلِ

إنّمـــــــــا   تـــبرزُ كـــي توقـــد نــــارَ الفــــتنْ

صنمـــــــا   مصـــــوراً في كــــل شــــيءٍ حســــنْ[١]

إن رمــــــى   لم يُخْــطِ مــــن دون القلــــوب الجَنَـــنْ[٢] !

في نظام الموشّحة

أكثر الموشحات تجيء في خمسة أغصان يكنفها ويتخلّلها ستة أَقفـال. ولكـن الوشّاحين لا يلتزمون بهذا دائماً فقد تنقص فتجيئ أربعة أغصان لخمسة أقفـال، أو أربعة وقد تزيد إلى ستة أغصان، وسبعة بل ربما طالت الموشّحة كالذي نجـده في موشّحة لسان الدين بن الخطيب[٣]:

جـادَكَ الغيـثُ إذا الغيـثُ همـى   يـا زمـانَ الوصـلِ بـالأندلسِ

لم يكـن وصلـك إلاّ حُلمـا   في الكـرى أو خلسـة المختلِـسِ

أما عدد الأَجزاء أَو الأشطار في كل قفـل، وكـل غصـن، وترتيبهـا، وتنويـع القوافي فيها، فموقوفٌ على الوشّاح نفسه فقد يجيء القفل مـن شـطر واحـد أو اثنين أو أكثر من ذلك بكثير. ويقال مثل هذا في الأغصان.

---

(١) قوله ((صنما)) يريد أنّ المحبوبة كالتمثال، أو الصُّورة، وعبَّر عن ذلك بكلمة الصنـم ملاءمـةً للقافيـة. والعرب تشبه المرأة الجميلة بالدُّمية. قال في اللسان: الدّمية: الصنم... ويقال للمرأة الدُّمية، يكنّى بهـا عن المرأة.

(٢) الجَنَن جمع جنّة، وهو ما يستتر به الإنسان من السّلاح.

(٣) سنوردها كاملة في هذا الكتاب.

وليس هناك نظام يحكم العلاقة في عدد هذه الأشطار بين الأقفال والأغصان. فلا ضرورة للتساوي أو الانسجام الخارجي. ودائماً يبقى ذوق الوشّاح هو الحكم والفيصل.

ولا يُستنكر على الوشّاح أن يستعير نظامَ موشحةٍ سَبَقَهُ إليه وشّاح آخر.

ولا بأس عندهم في أن يستعير الوشّاح خرجته من موشّحة وشّاح آخر سبقه كالذي صنعه لسان الدين حين استعار خرجته من مطلع موشحة ابن سهل الإشبيلي[١].

مصطلحات في الموشّح

١ ـ يقال في الواحدة: موشّحة، ويقال موشّح. والجمع موشّحات.

٢ ـ لفظ **المراكز** عند ابن بسام يقابله **الأقفال** عند ابن سناء المُلك، وهو اللفظ الذي شاع في الأندلس بعد اسم المراكز، وثبت في المغرب والمشرق بعد ذلك.

٣ ـ المركز العامي أو العجمي عند ابن بسام هو الخَرْجة. وقد ثبت هذا الاسم في كتب الأدب الأندلسية والمشرقية معاً.

٤ ـ الموشحات (وكذلك الأزجال)[٢] تتألف من مقطوعات[٣]، وكل مقطوعة تتألف من وحدتين تختلف تسميتها عند القُدَماء. وقد اختار الدكتور الأهواني كلمتي غصن، وقُفل.

٥ ـ إذا ابتدأ الموشح بالقفل فهو موشّح **تام** أو: ذو رأس، أو كامل، أو مُرَأّس. واخترتُ كلمة: **تامّ**.

---

(١) يقول مطلع موشّحة ابن سهل (الذي صار خرجة في موشحة لسان الدين):

هل درى ظبي الحمى أنْ قد حمى ... قلب صبٍّ حلّه عن مكنسِ

فهو في حَرٍّ وخفق مثلما ... لعبت ريح الصّبا بالقبَسِ!

(٢) سنتحدّث عن الأزجال بعد استيفاء الكلام على الموشّحات.

(٣) كما سمّاها د. الأهواني في (الزجل في الأندلس): ص ٥

- ويسمّى القفل الأول في هذه الحال: **المطلع**. ويقال فيه المذهب. وقد اخترت كلمة (المطلع).

٦ - ويسمّى القفل الأخير باسم **الخَرْجة**.

- **والخرجة المُعْرَبة**: هي التي جاءت بلغة عربية فصيحة

- **والخرجة العامية**: هي التي جاءت بلهجة عربية محلّية

والخرجة الأعجمية: هي التي جاءت بلغة رومانثيّة[1] . على أن وشّاحي المشرق في ما بعد استعملوا في الخرجة لغات أخرى كالفارسيّة والتركيّة.

٧ - وإذا ابتدأ الموشّح بالغُصن الأوّل (وحُذف القفل الأوّل) سُمّي الموشّح: أَقْرع.

٨ - الغصن الأول من الموشّحة مع القفل الذي يليه يسمّيان معاً باسم **الدَّور** (هذا ما اخترته، وهناك من يسمّيهما باسم آخر).

خصوصيَّة الخَرْجة

- الخرجة عند الوشّاحين أهم جزء في الموشحة. ومقامها عندهم مقام المطلع في القصيدة عند الشعراء. ((يخصّونها بعناية فائقة ويحسبون لها حساباً كبيراً))[2] ، وعبارة ابن سناء المُلك في دار الطراز ((الخرجة أبْزار الموشح ومِلْحُه، وسكّره ومسكه وعنبره. وهي العاقبة وينبغي أن تكون حميدة، والخاتمة ــ بل السّابقة ــ وإن كانت الأخيرة...)).

- والخرجة تكون فصيحة، وعامية، وأجنبية، كما سبق القول.

- والخرجة تمتاز بالبساطة، والخفّة، كقول أحد الوشّاحين في الخرجة:

---

(١) قال الدكتور الأهواني: اللغة الأعجميّة هي غير اللاتينية التي في الأديرة والكنائس. والخرجات الأعجمية تساوي في الدلالة الخرجات العامية حين يتصل الأمر بالتوشيح.

(٢) الزجل في الأندلس: ٦

أنزلـوا قلـبي الشّــجي		راكبـــاً لم يعـــرّج!

وقول الآخر (وقد أوردتُ هنا الغصنَ الأخير فالخرجة):

نــأى بفـــؤادي		وصَيَّرني حــادي		فَظَلْتُ **أُنــادي:**

محبوبي مسافر		صَبَّروني!

ـ تُسْبَقُ الخرجة عادةً بكلمة مثل غَنّى، وأنْشَد، ونادى، وما يشبهها (مما يدل على أثر الموسيقى في نشأة الموشـحة واستمرارها مـدة طويلـة). ولاحـظ المثـال السابق فقد ورد في الغصن الأخير السابق للخرجة كلمة (أُنادي).

وأورد هنا الغصن الأخير، والخرجة من موشحة لابن لبون[1] يقول فيها:

يا طيب وقت وطيب زمانِ		قطعتُه بطيب الأمـاني		والبَمُّ **منشدٌ** والمثـاني:

ودّعَـــتْ وقـــالت بتحنــــين		الله لــك يــا غريــب يامســـكين!

ـ قد تكون الخرجة مشتركة بين الموشّح والزَّجل.

ـ يظهر أثر البيئة الأندلسية في الخَرْجات مثل: السّفر، والاغـتراب، والخـروج إلى الغزو، وحرب العدوّ.

ويرد في الموشّـحات عامـة، والخرجـات خاصـة، ذكـر بعـض نباتـات البيئـة الأندلسيّة مثل الحَبق[2]، والحنّاء، والرّيحان (وهذا يرد كثيراً في الخرجة).

ـ ويكثر أن تجيء الخرجات على لسان فتاة.

ـ في موشحات المديح، المألوف أن تكون الخرجة مُعربة.

---

(١) جيش التوشيح: ١٦٠ .

(٢) الحَبَق: نبات طيّب الرائحة منه سهلي ومنه جبليّ، ويكثر على الماء. ويقال له نعناع الماء، وحبق الماء، ولأهل الشّام أيضاً رغبةٌ فيه: يأكلونه مع الطّعام، ويذكرونه في أغانيهم كما يذكرون الرَّيحـان. وهـذا مُشترك بينهم وبين أهل الأندلس.

ومن الخرجات المستحسنة التي أعلن الوشّاحون الأندلسيون المعاصرون لصاحبها إعجابهم بها، وسبق الوشّاح دونهم إلى مثلها، قول الأعْمى التّطيلي:

أَمــا تــرى أَحمــدْ في مَجْــده العــالي لا يُلْحَــــقُ!

أطْلَعـــهُ المَغـــربْ فأرِنـــا مثلـــه يـــا مَشْـــرقُ!

أغراض الموشّحات:

ارتبطت الموشحات في نشأتها بالموضوعات المناسبة لتلك النشأة الفنية الموسيقية الشعبيّة: من:

- الغَزل، والنسيب، والتشبيب؛
- ووصف الطّبيعة، ومجالسها؛

وسرعان ما وجد الوشّاح هذا النمط الجديد من النظم ملائماً لغرض المديح؛ الذي يبقى الغـزل، ووصف الطّبيعة ملازماً له غالباً. ووجد الممدوحون في الموشّحات شيئاً جديداً، يلفت إليهم الأنظار، ويحقّق لهم نشوة المدح في إطار مفعم بالنَّغم والمُوسيقا وحسن الإيقاع[١].

وصار الموشّح شيئاً فشيئاً يُستخدم في سائر أغراض الشعر كالرثاء والهجاء (وهذا غريب جدّاً)؛ وفي العتاب والشّكوى والحنين، وغير ذلك من الموضوعات والأغراض.

ووجد أهل الزّهد والتَّصَـوُّف في الموشح، (وفي الزّجَل أيضاً) وعاءً طريفاً لآرائهم وأفكارهم وقضاياهم.

وقد اشتهر من الوشّاحين الذين وظّفوا الموشح للأغراض الصوفية ابن عربي (الشيخ محيي الدين) وأبو الحسن الشُّشْتَري؛ وزخر ديوان الششتري بالأزجال الصُّوفيّة.

---

(١) وكانت الألحان توضع لموشحات المديح، وتغنى في حضرة الممدوح أحياناً مما يعطي الموشّحة ملمحاً اجتماعياً إضافة إلى الملمح الأدبي والفنّي.

في فنّية التّوشيح

١ ـ إذا نظرنا إلى أصل الموشح ونشأته عرفنا أنّه نشأ تلبيةً لحاجةٍ فنّية تتعلّق بالموسيقى والغناء وخصوصاً الغناء الشعبي، وما يقترب منه. والنظم لهذه الحاجة الفنّية لا يقتضي الجَزالة في الألفاظ، ولا القوة في التراكيب، ولا العمق في المعاني، ولا البُعد في الأخيلة. فالموشحة تميل إلى التخفف من ذلك كله، في غالب الأحوال ومعظمها، إلا في القليل النادر (كالذي نجده في بعض الموشحات الصوفية عند ابن عربي مثلاً).

فالنظم الرّقيق، والمعنى اللطيف، والألفاظ العذبة ذات الجرس الموسيقي، والأداء المباشر أو السَّهل الواضح يسيطر على الموشّح ويطبعه بطابعه.

٢ ـ والموشح غير الشّعري خاصة يقترب من النّثر كثيراً: من حيث لغته وأداؤه، وانسياب مقاصده، ووضوح مرماه.

والموشّح بصفة غالبة يميل إلى السُّهولة، والعفوية، والتلقائية.

٣ ـ يراوح الوشّاح بين القوافي المطلقة والقوافي المقيّدة في أجزاء الموشّحة وأشطارها. وكثيراً ما يكون تقييد القافية (بحيثها ساكنة) فرصة للوشّاح للتخلُّص من الحدود النحوية والقيود الإعرابيّة. ولو أُطلقت القوافي لظهر شيء من الخلل.

٤ ـ يلاحظ الوشّاح في موشّحاته أن تكون الألفاظ، والعبارات متلائمة مع الموضوع المطروح ومنسجمة معه. وتسعفه الحافظة اللغوية في هذا التلاؤم، والانسجام، وتتداخل مع البَراعة في الصّناعة لتشكّل أسلوب الوشّاح وطريقته في النظم.

٥ ـ البحور الشعرية التي لجؤوا إليها حين انتقلوا بالموشّح من غير الشعري إلى الشعري هي بحورٌ قليلة مثل: الرَّمَل، والهَزج، ومخلّع البسيط، والخفيف، والمتقارب، والمنسرح.

٦ ـ اعتمد الموشّح على التّنويع في النغم، وهذا يتعلّق بالمعرفة الموسيقية في تغيير الأوزان وتنويع القوافي. وتقاس مقدرة الوشّاح ببراعته في صياغة العبارة، وأداء المعنى الطريف الجديد، أو المولّد من العتيق في لبوس حسن من الشّكل المعجب والنغم البارع.

٧ ـ قد تبدو العلاقة غير وثيقة بين فقرة وأُخرى داخل الموشحة الواحدة إذ يكتفي الوشّاح بالإطار العام للموشّحة وفكرتها العامّة ـ ولا يجدون في هذا بأساً، فقد تُغريهم العبارة الرقيقة والفكرة العارضة في غلاف شفّاف مُرْهَف.

أشهر الوشّاحين:

في الوشّاحين ذوي الأثر في صنعة الموشّح: يوسف بن هارون الرَّمادي (ت ٤٠٣ هـ)، وعبادة بن ماء السّماء (ت ٤١٩ هـ)، وهما شاعران مشهوران أيضاً. ومحمد بن عبادة القزّاز (ت ٤٨٨ هـ) شاعر المعتصم بن صُمادح صاحب المَرِيّة، وقد ترجم له ابن بسام واستحسن موشّحاته في حين لم يستحسن شعره؛ وأبو بكر محمد بن أحمد الأنصاري الملقّب بالأبيض (ت نحو ٥٢٥ هـ)، وأبو بكر بن اللّبانة (ت ٥٠٧ هـ)، والأعمى التّطيلي، أحمد بن عبد الله بن هريرة القيسي (ت ٥٢٥ هـ)، وهو شاعر مشهور في زمانه وله ديوان شعر مطبوع (مذيّل بعدد من الموشّحات)، وأبو القاسم المنيشي (ت نحو ٥٥٧ هـ)، وأبو عامر بن ينَّق (ت: ٥٤٧ هـ)، وأبو بكر محمد بن عبد الله بن زُهر، الحفيد (ت ٥٢٥ هـ).

ـ ومن موشحات المديح واحدة للأعمى التُّطيلي، اشتهرت بعذوبتها ورقّتها، وفاقت بخرجتها الرشيقة لفظاً البارعة فكرةً ومعنى، قال:

أعْيى على العُوَّدْ ... رهينُ بلبالِ ... مُؤرّقُ

أذله الحبُّ ... لا ينكر الذّلّهْ ... من يعشقُ

من لي به يَرْنُو ... بِمُقْلَتَيْ ساحِرْ ... إلى العبادْ

ينأى بـه الحسنْ فينثني نافرْ صعب القيادْ
وتارةً يدنو كما احتسى الطائرْ ماء الثّمادْ
فجيدُه أغْيَدْ والخدُّ بالخال مُنَمَّقُ
تكنفهُ الحجبُ فلي إلى الكِلَّهْ تَشَوُّقُ
عطا بِليتَيْهِ ومرَّ كالظّبي لِبيدِهِ
فدلَّ عليهِ تكسُّر الحَلْي بجيدِهِ
تفتيرُ عينيهِ يُسْرِع في بَرْي عميدِهِ
فإن أكُنْ أقصِدْ منهُ فأَوْلى لي إذْ يَرْمُقُ
هل يسلمُ القلبُ وأسهم المقلَهْ لا ترفقُ؟!
وددتُ من خِليّ ومثلُ نشر الكاسْ في شَعْرِهِ
لو جادَ بالوصلِ جودَ أبي العباسْ بوَفْرِهِ
في الجود والنبلِ وقل: أجلُّ الناس في قَدْرِهِ
يا كعبةَ السؤدَدْ حتى على المالِ لا تُشفِقُ!
فمثلكَ النّدْبُ يسابقُ الجلَّهْ فَيَسْبِقُ!
يا أيها الحائمْ هل لك في عَذْبِ ماء الدّلا
يَمِّمْ بني القاسمْ واقصِدْ من الغرب إلى سَلا
واستمط رواسمْ تخالُ بالرّكب وسط الفلا
سفائناً تَجْهَدْ في أبْحُرِ الآلِ ما تغرَقُ
يستبشر الركبُ وتشتكي الرحلَهْ الأيْنُقُ!
أدعوهُ بالقاضي وأمرهُ يقضي عليَّ لي
أنا به راضِ لأنه يُرْضي لأملي

قل غير معتاضِ   بمن على الأرض   منه، قُلِ
أما تَرى أحْمَدُ   في مجده العالي   لا يُلْحَقُ؟
أطْلَعَهُ الغربُ   فأرِنا مِثْلَهْ   يا مشرق!!

وقال الأعمى التُّطيلي(١):

كيف السبيل إلى   صبري وفي المعالمِ   أشجانُ
والركبُ وسط الفَلا   بالخُرّدِ النواعمِ   قد بانوا!!
أقبلنَ يوم الحمى   في سندسيات الحُلَلْ
بِيْضٌ كمثل الدُّمى   سُود الفروع والمُقَلْ
فيا مُعَنّى بما   لو ناله نال الأمَلْ
دون ذواتِ الحُلى   للسيف والصوارمِ   حرمانُ
ابْغِ النجاةَ ولا   يغررك بالضراغمِ   غزلانُ
لم يَدْرِ شيئاً سوى   تعذيبه لِصَبّهِ
وما شكوتُ الهوى   إليه خوف عَتْبِهِ
وكنت قبل النّوى   مكتتماً لِحُبِّهِ
فعندما رحلا   فاضت بدمعٍ ساجمِ   أجفانُ
أطلعنَ منّي على   سِرّي وهل للهائمِ   كتمان؟
أهدى إليّ السرورْ   بحرٌ يفيضُ بالمِنَنْ
إن حاربتني الدّهورْ   فهو حسامي والمِجَنّ
فقل لكلّ فخورْ   مثل أبي يعقوب كُنْ!

---

(١) الموشح في ديوان الأعمى: ٢٧٢، وفي جيش التوشيح: ٣٣
- وهو موشّح غير شعري. والخرجة فصيحة.
- وموضوع الموشّح: المدح، وتقدم المدح غزل رقيق. والممدوح هو أبو يعقوب يوسف بن القاسم.

ذاك الـذي كمَـلا ... وفي جميـع العـالمِ ... نقصـانُ
وطالمـا عَـدلا ... وللزمـانِ الظـالمِ ... عـدوانُ
ذو سـؤدد لا يُنـالْ ... لـو تبعَتْـهُ الأنْجُـمْ
إذا ذكـرت الـنزالْ ... فهـو الجـريء الـمُقْدِمُ
وإن طلبـت النـوالْ ... فهـو الجـوادُ المُنعِـمُ
تـا لله مُـذْ بـذلا ... مـا قـام للغمـائمِ ... مـيزانُ
اضـربْ بـه المَثَـلا ... فـإن جُـوْدَ حـاتمٍ ... بُهْتـانُ!
ومُزْمِـعٍ للسَّـفرِ ... لم يَـرْض غـيري مستشـارْ
فقـال تـدري سـفري ... هـمُ علـى البحـر بحـارْ؟
فقلـتُ: سِـرُّ الخَـبر ... عنـدي، فخـذهُ باختصـارْ:
إنْ جئـتَ أرْضَ سَـلا ... تلقـاك بالمكـارمِ ... فتيـانُ
هـمُ سطورُ العُـلا ... ويوسفُ بـن القاسـمِ ... عنـوانُ!

ـ وقال لسان الدين بن الخطيب(*) :

جَـادَكَ الغيـثُ إذا الغيـثُ هَمـى ... يـا زمـانَ الوَصْـلِ بـالأندلُسِ
لم يكـنْ وصلُـكَ إلاّ حُلُمـا ... في الكـرى أو خلسـةَ الـمُختلسِ
إذْ يقـودُ الدَّهـرُ أشـتاتَ المنـى ... نَنقُـل الخطـوَ علـى مـا ترسُـمُ
زُمَـراً بـين فُـرادى وثُنـا ... مثلمـا يدعـو الحجيـجَ الموسـمُ
والحَيـا قـد جلَّـل الـرَّوض سَـنا ... فثُغـورُ الزَّهـر منـهُ تبسـمُ(١)
وروَى النُّعمـانُ عـن مـاء السّـما ... كيـفَ يـروي مـالكٌ عـن أنَـسِ(٢)

(*) أفردنا في هذا الكتاب ترجمة خاصة بلسان الدين بن الخطيب.

(١) الحَيا: المطر.

(٢) النعمان: شقائق النّعمان (وتُسَمّيه العربُ الشَّقِر): نوع من الزهر معروف. وماء السّماء: المطر (وفي البيت تورية). وقوله (روى) يكون من الرواية ويكون من الارتواء.

فكَساهُ الحُسنُ ثوباً مُعلما ... يَزْدَهي منهُ بأَبْهى مَلْبَسِ
في ليالٍ كتمتْ سرَّ الهوى ... بالدُّجى لولا شُموسُ الغُرَرِ[1]
مالَ نَجمُ الكأس فيها وهَوى ... مستقيمَ السَّير سَعد الأثرِ
وطَرٌ ما فيه من عيبٍ سوى ... أنّهُ مرَّ كلمح البَصَرِ
حينَ لذَّ النَّومُ شيئاً أو كما ... هجَم الصُّبحُ هُجومَ الحَرسِ
غارتِ الشُّهبُ بنا أو ربَّما ... أثَّرَت فينا عيونُ النَّرْجسِ
أيّ شيءٍ لامرئٍ قد خَلُصا ... فيكونُ الرَّوضُ قد مُكِّن فيه
تنهبُ الأزهارُ فيه الفُرَصا ... أمِنَتْ من مكرِه ما تتَّقيهْ
فإذا الماءُ تَناجى والحَصا ... وخَلا كلُّ خليلٍ بأخيه
تُبصرُ الوردَ غَيُوراً بَرِما ... يكتسي من غيظهِ ما يكتسي
وتَرى الآسَ لبيباً فَهِماً ... يَسرق السَّمع بأُذنَيْ فَرَسِ[2]
يا أُهيلَ الحيِّ من وادي الغَضا ... وبقلبي مَسكنٌ أنتمْ بهِ
ضاقَ عن وجدي بكم رحبُ الفضا ... لا أُبالي شَرْقَهُ من غربهِ
فأعيدُوا عهدَ أنس قد مَضى ... تُعْتِقوا عبدَكُم من كربهِ
واتَّقوا اللهَ وأحْيُوا مُغْرَماً ... يتلاشَى نفَساً في نفَسِ
حبَس القلبَ عليكُمْ كرَما ... أفترضونَ عفاءَ الحُبُسِ[3]
وبقلبي منكمُ مقتربُ ... بأحاديث المنى وهو يُعيدْ
قمَرٌ أطلع منهُ المغربُ ... شقوةَ المُغْرى به سعيدْ

---

(١) الغُرر جمع الغرّة: غُرّة الجبين.

(٢) الآس: نباتٌ معروف له ثَمر يُؤكل، ويتخذ منه طِيْبٌ حسَن. ويُضْرَبُ المَثل بطولِ الوقت الذي يبقى فيه الآس نضراً بعد قطافه. وشبه الشاعر ورقة الآس بأذن الفرس في شكلها وانتصابها.

(٣) أي جعله حبْساً أو وقْفاً.

قد تساوى مُحسنٌ أو مُذْنِبُ ... في هَواهُ بين وَعْدٍ ووعيدْ
أحورُ المُقلة معسولُ اللَّمى ... جالَ في النَّفسِ مجال النَّفَسِ
سَدَّدَ السَّهم فأصْمى إذ رَمى ... بفؤادي نبلةَ المُفتَرِسِ(١)
إن يكن جارَ وخابَ الأملُ ... ففؤادُ الصَّبِّ بالشَّوقِ يذوبْ
فهو للنَّفسِ حبيبٌ أوَّلُ ... ليسَ في الحُبِّ لمحبوبٍ ذنوبْ
أمرهُ مُعتملٌ مُمتثلُ ... في قلوبٍ قد براها وقلوبْ
حَكَم اللَّحظ به فاحتكما ... لم يُراقب لي ضعافِ الأنفسِ
يُنصف المظلومَ ممَّن ظلما ... ويُجازي البرَّ منها والمُسي
ما لقلبي كلَّما هبَّتْ صَبا ... عادهُ عيدٌ من الشَّوقِ جديد
جلبَ الهمَّ له مكتتبا ... فهو للأشجانِ في جهدٍ جهيد
كان في اللّوحِ له مكتتبا ... قوله: ((إنَّ عذابي لشديدْ))
لاعِجٌ في أضلعي قد أضرما ... فهي نَارٌ في هشيمِ اليَبَسِ
لم يدَعْ في مهجتي إلا ذَما ... كبقاءِ الصبح بعدَ الغَلَسِ(٢)
سلِّمي يا نفسُ في حكم القضا ... واعمُري الوقت برُجعى ومتاب
ودعي ذِكرَ زمانٍ قد مضى ... بين عُتبى قد تقضَّتْ وعتاب
واصرفي القولَ إلى المَولى الرِّضى ... مُلهَم التَّوفيقِ في أمّ الكتاب
الكريمِ المُنتهى والمُنتمى ... أسدِ السَّرْج وبدرِ المجلِسِ
يَنزِلُ النَّصرُ عليه مثلما ... ينزل الوحيُ بروح القُدُسِ
مصطفى الله سميُّ المُصطفى ... الغَني بالله عن كلِّ أحدْ(٣)

---

(١) يقال: أصماه إذا أصابه في مكانه (كالصائد بقتل صيده).
(٢) الذّماء: بقية الروح.
(٣) الغني بالله لقب الممدوح.

مَـنْ إذا مـاعقدَ العهـد وفـى وإذا مـافتح الخطـب عقـدْ

مـن بـني قيسِ بـن سـعدٍ وكفـى حيثُ بيتُ النَّصر مرفـوع العمـد[١]

حيث بيت النَّصر محميٌّ الحمـى وجنى الفضـلِ زكـيٌّ المغـرسِ[٢]

والهـوى ظـلٌ ظليـلٌ خيَّمـا والنَّـدى هـبَّ إلى الـمُغترسِ

هاكهـا ياسـبط أنصـار العُـلا والـذي إن عـثرَ الدَّهـرُ أقـالْ

غـادةٌ ألبسَـها الحسـنُ مُـلا تبهـرُ العـينَ جـلاءً وصقـال[٣]

عـارضَتْ لفظـاً ومعنـىً وُحلـى قـولَ مـن أنطقـهُ الحـبُّ فقـالْ:

((هَلْ درى ظبيُ الحمى أنْ قد حمى قلـبَ صـبٍّ حَلَّـهُ عـن مَكْنَـسِ

فهـو في حَـرٍّ وخفـقٍ مثلمـا لعبَـتْ ريـحُ الصَّبـا بـالقبسِ))

ـ وقال لسان الدين بن الخطيب:

يَاحَادِي الْجِمَـالْ عَرِّجْ عَلَـى سَـلاَ قدْ هَـامَ بِالجَمَـال قَلْبِـي وَمَـا سَـلاَ

عَرِجَ عَلَى الخَلِيجِ وَالرَّمْلِ وَالْحِمَـى

فِي الْمَنْظَرِ الْبَهِيجِ بِـالبِيضِ كَـالدُّمَى

وَالأَبْطَحِ النَّسِـيجِ مِنْ صَنْعَةِ السَّمَا

لِلَّـهِ مِـنْ خِـلاَل تَخْتَـالُ فِي حُلـى لَمْ تُلْفِ فِي اعْتِدَالْ عَنْهُـنَّ مَعْـدِلاَ

وَطُفْ مِنَ الرِّبَاطِ بِرُكْـنِ طَـائِفِ

بِمَـنْزِلِ اغْتِبَـاطِ دَارِ الْخَلاَئِـفِ

مُقَـدَّسِ الْمَوَاطِـي جَـمِّ الْمَعَـارِفِ

كَمْ مِنْ سَنَا هِلاَلْ بِأُفْقِـهِ انْجَلَـى أَنْحَى عَلَى الضَّلاَل فَانْجَابَ وَانْجَلَى

---

(١) تنتمي أسرة الممدوح إلى سعد بن عبادة الأنصاري، الصحابي الجليل.

(٢) دعيت أسرة الممدوح ببني الأحمر، وبني نصر أيضاً.

(٣) في وصف موشحته. والجلاء مصدر جلا العروس: أظهرها في أتمّ زينة لزوجها.

جَنَى النَّعِيمِ دَانٍ وَالبَحْرُ وَالغَدِيرْ
أَهِلَّةُ الشَّوَانِي فِي أُفْقِهِ تَسِيرْ
وَقَهْوَةُ الدِّنَانِ يُدِيرُهَا مُدِيرْ
أَغَرُّ كَالْغَزَالِ مُقَلَّدُ الطُّلاَ يَسْطُو وَلا يُبَالِي بِالأُسْدِ فِي الْفَلاَ
أَوْلَى إِلَيْكَ أَوْلَى مِنْ ذِكْرِ مَعْهَدِ
أَكْثَرْتَ فِيهِ قَوْلا فِي كُلِّ مَشْهَدِ
خُذْ فِي امْتِدَاحِ مَوْلَى نَدْبٍ مُؤَيَّدِ
مُسَجَّدِ الْجَلاَلِ مَشْهَرِ الْعُلاَ قَدْ فَاقَ فِي كَمَالِ وَرَاقَ مُجْتَلَى
مُوَافِقُ الْخَلِيلِ فِي الإِسْمِ وَالسِّمَاتِ
ذِي الْمَنْظَرِ الْجَمِيلِ الرَّائِقِ الصِّفَاتِ
مُكَرَّمِ الدَّخِيلِ[1] وَمُجْزِلِ الْهِبَاتِ
وَمُحْسِبِ[2] النَّوَالِ لِمَنْ تَوَسَّلاَ وَرَافِعِ الْمَعَالِي سُحْباً مُضَلِّلاَ
يَا مَنْ عُلاَهُ دَرَّتْ بِكُلِّ نَائِلِ
خُذْهَا إِلَيْكَ جَرَّتْ ذَيْلَ الخَمَائِلِ
وَفِي حُلاَكَ أَزْرَتْ بِقَوْلِ قَائِلِ
يَامَنْزِلَ الْغَزَالِ حُيِّيتَ مَنْزِلاً فَمَا أُرَى بِسَالِ عَنْهُ وَإِنْ سَلاَ

٩- وقال ابن خاتمة الأنصاري(*) :

(١) الدخيل: الضيف
(٢) المحسب: المكثر.

(*) أبو جعفر أحمد بن علي بن خاتمة الأنصاري (ـ ٧٧٠هـ) من أهل المَرِيّة بالأندلس، كاتب، فقيه، أديب، شاعر طبيب، كتب عن الولاة ببلده، وقعد للإقراء، واتصل بالسلاطين، وتردد على غرناطة عاصمة الأندلس آنذاك، له (تحصيل غرض القاصد في تفصيل المُرض الوافد)، يبحث فيه عن طاعون سنة (٧٤٩هـ)، طبع ديوانه (بتحقيق محمد رضوان الداية)، وطبع ثانية بدار الحكمة ـ دمشق، وثالثة بدار الفكر، وجمع تلميذه ابن زرقا له مجموعة من أشعاره في غرض التورية، راجع كتاب: رائق التحلية في فائق التورية، طبع دار الحكمة ـ دمشق.

ما أحلاك يا قمرَ الأحلاك كمْ أهواكْ ... وفي الحَشا مثواكْ ولاتدري!

الحسنُ يحار في خَدّاكْ ... والغصنُ يغار من قدّكْ

والذهنُ ... وقفٌ على ودّكْ

من حَلاكْ بالحُسن ما أحلاك ... لأنساك يا فتنة النُساك إلى الحَشْرِ

هل سُلوانْ لعاشقٍ هَيْمانْ ... عن عُدوانْ ذا الفاتر الأجفانْ

يافَتّانْ ... أسرفتَ في الهجرانْ

قد جَرّاك ظُلماً على مُضناك ... مَن أفتاك بالصدّ يافتّاك وبالهَجْرِ

لاصارمْ كلحظك النائم ... ياظالمْ أما تُرى راحِمْ

لِـ ... أنتَ به عالِمْ؟

ما أسْباكْ للعقلِ ما أصْباكْ ... هل عَيناكْ قد أسكرتْ مضناك

ما عُذْرُ من ضلَّ عن وُدّه ... والبدرُ بادٍ على خَدِّه

والضُّرُّ ... والنَّفْعُ من جُندِه

إن رَدّاك ثوب البلى أرداك ... أو ولاّكْ طيبَ الرضى أولاك جَنى البِشْرِ

رُحماكا يا فتنة الخَلق ... لولاكا ما صرتُ في رِقّ

بلواكا عمت ولم تُبْقِ!

قلَّ من رآك وليسَ من أسراك ... مُرْ إيّاكْ ياناظر إياكْ أن اشْ نَدري؟!

الزَّجل في الأَندلس[١]

إن النظرية التي عَرَضها الدكتور عبد العزيز الأهواني ـ رحمه الله ـ في نشأة الموشح، وارتباط ذلك بما قدّم من حجة ودليل: بالأغنية الشعبية تصلح أيضاً للكلام على نشأة فن الزّجل، وذيوع الأزجال الأندلسية في تلك البلاد، وهي فن أدبي باللهجة الأندلسية الدارجة انتقل أيضاً إلى المشرق؛ ونال استحسان الناس هناك، ونسخة ديوان ابن قُزْمان أشهر زَجّالي الأندلس كُتبت في صفد بفلسطين في منتصف القرن السادس! (وهي النسخة الوحيدة الباقية).

قال الدكتور الأهواني[٢] : ((قدّرنا أن الزجل ظهر في الوقت الذي أخذ فيه التوشيح يتجه إلى التعقيد ويبتعد عن البساطة الأُولى، ومعنى هذا أن الزجل يرجع إلى أواخر القرن الرابع الهجري حيث عاش عبادة بن ماء السماء ويوسف ابن هارون الرمادي؛ وهما اللذان أدْخلا التغيير على التوشيح حسب نَصّ ابن بسام)).

ونصوص الزجل الأندلسي التي قيلت في القرن الخامس ضائعة، وأشار ابن قُزْمان[٣] في مقدمة ديوان أزجاله إليها إشارات موجزة.

---

(١) ينظر كتاب: الزّجل في الأندلس، د. الأهواني.
ـ وقد مرّت كتب تاريخ الأدب الأندلسي بالموضوع كما في عصر الأندلس لشوقي ضيف ١٦٣.
(٢) الزجل: ٥٢.
(٣) سنقف عند ترجمته بعد يسير.

ومن المذكورين من زجّالي القرن الخامس أخطل بن نمارة، وابن راشد، وقد عاب ابن قزمان زَجل ابن راشد لما فيه من صعوبة وخشونة فقال:

زجلك يا ابن راشد قوي متين وإن كان هو للقوّة فالحمّالين!

يقول: لو أن الأمر في الفن أمر قوّة لكان الحمّالون أَوْلى به!

وعلل الدكتور الأهواني ضياع أزجال القرن الخامس، بأن هذا القرن كان عصر القصائد والموشحات وأن ملوك الطوائف: ((كانوا يتشبّهون في حياتهم الأدبية بالعصور الذهبية للشعر العربي في بلاط العباسيين والحمدانيين، فلم يكن للأزجال ـ ولكل ماهو ملحون ـ مكان كبير عندهم)).

وقد تغيّر هذا مع زمان المرابطين (الذين لايتقنون العربية) كما عبرّ الدكتور الأهواني... فازدهر حينذاك الزَّجَل، والتمس أصحابُه لأنفسهم سوقاً يَنْفُق فيه فنّهم..

ـ وهناك زجل يُنسب إلى ابن راشد يبدأ بالغزل وينتهي بالشكوى من ضيق ذات اليد وقد اقترب موسم العيد، وأوّل الزَّجَل:

كل من يعيب حبي أيش يفيدو
ذاهَمُّ ليش يلوم؟ كذاك نريدو

يقول في آخره:

كل حدّ في ذا العيد شرّح وملّح
وعمل على حَبْلُو مبزور مُمَلّح
وأنا فليس عندي كبش فينطح
ولا مابجوّل السّكين على وَرِيْدُو

وهذا النمط يعد من أبسط أنواع الزجل، ولهذا النوع البسيط نظائر كثيرة في أزجال ابن قزمان، وليس له نظائر في الموشّحات. والظاهر أن هذا النوع كان نوعاً شعبياً، ويُنشد على آلة موسيقيّة[1] .

والنوع الثاني من الأزجال هو الذي تكثر فيه الفقرات، وتتعدّد القوافي وتزدحم، فيشبه من هذه الناحية موشحات القرن الخامس ومابعده. فالنوع الأول المتصل بالأصل الشعبي القديم (بالأغاني) ظل موجوداً بين العامة وفي البوادي (الأرياف) ينظمون فيه أشعارهم ويغنون على البوق. وهذا النوع من الزجل مارسه الزجالون المثقفون من رجال القرن الخامس على قلّة، ولكنهم اتجهوا إلى محاكاة التّوشيح. ومن محاكاتهم لفن التوشيح وقعوا في (الإعراب) أي مقاربة نظم الزجل في مقاطع منه للكلام الفصيح وهذا عيبٌ عند ابن قزمان، وسمّي هذا التصرف من الزجال (التزنيم) دلالةً على كونه عيباً في نظم الزجل.

الزّجْل والهزل:

وجدت لفظة الزجل مع لفظة الهزل في وقت واحد، واستعملها ابن قزمان للدلالة على فن الزجل نفسه. وفرق د. الأهواني بينهما بأدلّة أوردها وجَعل الزجل للشعر الشعبي، والهزل لما شابَه الموشحات. قال: ثم اختلط المُصطلحان، ولكلام تفصيل لا مجال له هنا.

الزجّالون في الأندلس

عُرِف قبل ابن قزمان إذن عدد قليل: ابن راشد، وأخطل بن نمارة.

وعُرف في عَصْرِه أبو عمرو بن الزاهد الإشبيلي، وعيسى البليد الإشبيلي، وأبو الحسن المقري الدّاني، وأبو بكر بن مَرْتين إضافة إلى ابن قزمان نفسه. والأسماء المذكورة لانعرف ترجمة لغير اثنين منهم هما ابن قزمان وابن الزّاهد.

---

(١) الزجل: ٥٧

وظهر بعد ابن قزمان زجال آخر مشهور هو مَدْغَلْيس، وسنترجم لهما ونختار من أزجالهما، وابن الزيّات.

ومن الزجّالين المعدودين ابن غرلة، وكان ينظم الموشح والزَّجل. وله من مطلع زجل:

مشى السهرحيرانْ حتى رأى إنسانْ[1] عيني وقف!

وظهر عدد من الزجالين في القرن السّابع وماوراءه، ولكنهم لم يشتهروا شهرة ابن قزمان ومدغلّيس، ولم يبق من أزجالهم إلا القليل، أو النتف اليسيرة؛ ماعدا الزجل الصُّوفي الذي برع فيه أبو الحسن الششتري خاصّة..

ـ ومن هؤلاء ابن جَحْدر الإشبيلي الذي نظم زجلاً في فتح جزيرة ميورقة أوّله:

من عاند التوحيد بالسيف يمحق أنا بري ممّن يعاند الحقّ

ابن قُزْمان[2] : هو أبو بكر محمد بن عيسى بن عبد الملك بن قزمان ولد نحو (٤٨٠هـ) وتوفي سنة (٥٥٥هـ).. فأكثر حياته كان في عصر المرابطين، على أنه أدرك صَدْر دولة الموحّدين. وأسرة ابن قزمان أسرةٌ نبيلة كانت بين عالم ووزير ورئيس. نشأ في قرطبة نشأة علمية أدبيّة. وقد نظم الشعر والموشح والزّجل. ولكنه مال إلى الزجل لـمّا رأى نفسه مجلّياً فيه مقصّراً في غيره، وصار ـ كما يقول ابن سعيد في (المُغرب)-: إمام أَهْل الزّجل المنظوم.

ويبدو أن ابن قزمان عاش حياته في لهو وإسراف حتى ضيّع ماله وتكسّب بزجله، ويتمثل ابن قزمان في أزجاله ((مُكدياً[3] دائم الإلحاف في طلب أنواع

---

(١) إنسان العين: البؤبؤ، وفي الزجل تورية لطيفة.

(٢) ترجم له ابن سعيد في المُغرب ١/١٠٠ و١/١٦٧، وتحفة القادم (الترجمة رقم ٢٥)، والإحاطة في أخبار غرناطة ٢/٢٩٤، والوافي بالوفيات ٤/٣٠٠.

(٣) انظر في الكُدْية والمكدين بحث المقامات من هذا الكتاب.

الملابس وفي تشهّي خروف العيد وفي طلب القمح..))[1] وفي أخباره أنه دخل السّجن، وأنه توسل بالأمير محمّد بن سير فأنقذه منه وهذه قطعة من زجل له يشكو فيها القاضي ويشكر الأمير:

لقد اشتدّ حبلي ... وانقطع بعد ما اشتدّ
وإنما نشكر الله ... وابن سير محمّد
للقتل كان رفعني ... ولد ابن المناصف!
وعدّ منّي منافق ... وحسبني مخالف
لس عندك مصيبة ... لو خرج روح واقف
أو نرى السيف بعيني ... لقطوع راسي يِجْبَدْ!
لم يُرَ قطّ لعمري ... قاضٍ يعمل ذا الأعمالْ
أن يسكّن جواري ... كل حوّاس وقتّالْ
با لله ما أطول الليل ... إذْ نبيت مشغول البالْ
ليل انْ آخر يزاد فيه ... أو حبلْ صُوره يمتدّ!

ولايقلّ الجدّ وجوداً في زجله عن الهزل فلكلّ كلام مقامه ومناسبته، وهو ذا يمدح في أحد أزجاله، ويدخل في الموضوع دون مقدّمات غزلية:

مثل ابن تاشفين يقال أميرْ ... والخلافهْ من بعدُ عادت تسيرْ

بارك الله في هاذا الأيّامْ
تجي أعوام إذا مضت أعوامْ
ويجعلهم سلاطين الإسلام
ونصرهم كما هُو نَعْمَ النّصيرْ

(١) الزجل في الأندلس وعصر الطّوائف والمرابطين ٢٦٨.

وقد اهتم المستشرقون بأزجال ابن قزمان، وقد عدوا اكتشاف ديوانه حدثاً مهماً في تاريخ الشعر الأندلسي بل الأوربي كله[١] لأهميّته في الدراسات العربية والرومانية في القرون الوسطى، وكثرت البُحوث حوله من جوانب متعدّدة: الأدب واللّغة والاجتماع وغير ذلك.

مُدْغَلّيس:

اتّصلت الأَزجال منذ نشأتها إلى آخر عهد ابن قُزمان بالتّوشيح والغِناء. فلمّا جاء مدغَلّيس ظهر على يديه، أو اقترن باسمه نوع جديد من الزّجل هو القصيدة الزجليّة.

وكان أهل الأندلس يقولون: ابن قُزمان في الزّجالين بمنزلة المتنبي في الشعراء، ومدغلّيس بمنزلة أبي تمام، بالنظر إلى الانطباع والصناعة (يريد: الطبع والصّنعة) فابن قزمان ملتفت إلى المعنى، ومدغليس ملتفت للفظ..[٢]

وكان لمدغلّيس ديوان زجل نقل عنه صفّي الدين الحِلّي في كتابه: (العاطل الحالي والمُرْخَص الغالي)

- ومن زجله في حوار بينه وبين النسيم:

لقد أقبلت يانسيم السَّحر ... بروائح قد بوّرت للمسوكْ

توقد أنفاسك الذكيّة شمع ... في قلوبنا متى مانستنشقوك!

- ومن زجله في المديح (مدح ابن صناديد):

أبو عبد الله الذي أسّس لُ جاه ... بن صناديد تبنّى واحتفلْ

ولُ هِمّة قد علت فوق الهمم ... فهو لايرضى الثريّا عن نَعلْ

الرفيع الماجد الحرّ الشريف ... الشجاع الفارس الليث البَطلْ

---

(١) الزجل ٦٩.

(٢) من عبارةٍ للمقّري في نفح الطيب ٤/٣٥٦.

وقد اهتم المستشرقون بأزجال ابن قزمان، وقد عدوا اكتشاف ديوانه حدثاً مهماً في تاريخ الشعر الأندلسي بل الأوربي كله[١] لأهميّته في الدراسات العربية والرومانية في القرون الوسطى، وكثرت البُحوث حوله من جوانب متعدّدة: الأدب واللّغة والاجتماع وغير ذلك.

مُدْغَلّيس:

اتّصلت الأَزجال منذ نشأتها إلى آخر عهد ابن قُزمان بالتّوشيح والغِناء. فلمّا جاء مدغَليّس ظهر على يديه، أو اقترن باسمه نوع جديد من الزَّجل هو القصيدة الزجليّة.

وكان أهل الأندلس يقولون: ابن قُزمان في الزّجالين بمنزلة المتنبي في الشعراء، ومدغلّيس بمنزلة أبي تمام، بالنظر إلى الانطباع والصناعة (يريد: الطبع والصّنعة) فابن قزمان ملتفت إلى المعنى، ومدغليس ملتفت للفظ..[٢]

وكان لمدغليّس ديوان زجل نقل عنه صفّي الدين الحِلّي في كتابه: (العاطل الحالي والمُرْخَص الغالي)

- ومن زجله في حوار بينه وبين النسيم:

لقد أقبلت يانسيم السَّحر ... بروائح قد بوّرت للمسوكْ

توقد أنفاسك الذكيّة شمع ... في قلوبنا متى مانستنشقوك!

- ومن زجله في المديح (مدح ابن صناديد):

أبو عبد الله الذي أسّس لُ جاه ... بن صناديد تبنّى واحتفلْ

ولُ هِمّة قد علت فوق الهمم ... فهو لايرضى الثريّا عن نَعلْ

الرفيع الماجد الحرّ الشريف ... الشجاع الفارس الليث البَطلْ

---

(١) الزجل ٦٩.

(٢) من عبارةٍ للمقّري في نفح الطيب ٣٥٦/٤.

ويذهب الدكتور الأهواني إلى أن: الباقي من أزجال مدغلّيس محكوم بأذواق الأدباء الذين اختاروا. وهو على كل حال لايَرْقى إلى مستوى أزجال ابن قزمان فكأنه هو أمير زجَالي الأندلس بلا منازع.

أبو الحسن الشُّشْتري[1]

هو أبو الحسن عليّ بن عبد الله النُّميري الششتري الأندلسي. نسبته إلى ششتر إحدى قرى وادي آش في جنوب الأندلس، ولد سنة (٦١٠هـ) درس علوم عصره، وخصوصاً: علوم القرآن والحديث والفقه والأُصول، وزاد دراسة الفلسفة، وعرف مسالك الصُّوفية ودار في فلكهم، وكان يُعرف بلقب: عروس الفقهاء.

- نظم الشّشتري القصيد، والموشح، والزَّجل. وذاع صيته شرقاً وغرباً.

- وبدأ حياته تاجراً جوّالاً في الأندلس والمغرب، ولقي أبا مدين شعيب التلّمساني الصوفي المشهور في بجاية فتبعه، ثم تبع ابن سبعين (أحد كبار المتصوّفة ومشهوريهم).

- أدّى فريضة الحجّ، وسكن القاهرة مدّةً، ولقي أصحاب الشاذلي حتى عدّوه منهم، وزار الشام سنة (٦٥٠هـ)، ولقي نجم الدين بن إسرائيل الصوفي الشاعر.

- كان الششتري يطوف في البلاد ويردّد أشعاره وموشحاته وأزجاله على أنغام آلته الموسيقية التي عُرفت باسم (الششتريّة) ويتبعه الأشياع والأصحاب ممّن تسمّيهم المصادر بـ(الفقراء).

- وفي أخباره أن أهل طرابلس عرضوا عليه ــ حين نزل عندهم ــ منصب القضاء فأبى فنسبوه إلى الجنون، فقال قطعة أولها:

---

(١) تنظر ترجمته في (عنوان الدراية ١٤٠ ونيل الابتهاج ٢٠٢)

ــ ولأبي الحسن ديوان مطبوع حققه الدكتور علي سامي النشار، وطبع في منشأة المعارف بالإسكندرية.

رضي المتيّم في الهوى بجنونهِ خلّوه يُفني عُمْرَهُ بفنونهِ

في أزجال أبي الحسن الششتري[1] زجل يجري على نسق الموشح من حيث شكله بترتيب الأقفال والأغصان، يبدأ بالمطلع وينتهي بالخرجة، ويلاحظ على الأقفال أنها تتألف من ثلاثة أجزاء يتجدد الأوّل في كل قفل ويتكرر الثاني والثالث؛ على نهجٍ يساعد الزجّال على تقريب مقصده إلى مَنْ حوله وتابعيه، ويساعده في التّوكيد اللفظي والمعنوي، ويبدأ الزجل على هذه الصورة:

اسمع كلاماً ملتقط افهمني قَطّ افهمني قطّ

إيش قال لي واحدْ عَلَّهُ

ذا المعنى افهم شرْحَهُ

إيش اسم حبّك قلت: هُو

اسم المليح ما يختلطْ افهمني قط افهمني قطّ

وقال أبو الحسن الششتري[2]:

شُويخْ مِن أرْضِ مِكْناس وسْطَ الأسواق يُغَنّي

أشْ عَلَيَّا مِن النّاس وأشْ على النّاسِ منّي

أش عليّا ياصاحب مِن جَميع الخَلايقْ

إفْعَل الخيرَ تنْجُو واتبعْ أهلَ الحقائق

لاتقُلْ يا بني كِلْمَهْ إلاّ إنْ كنتَ صادِق

خُذ كلاَمِي في قُرْطاس واكتُبُوا حِرْزَ عَنّي

أشْ عَلَيَّا مِن الناس وأشْ علَى النّاسِ منّي

ثمَّ قَولٌ مُبِينٌ ولايحْتاج عبارَهْ

---

(١) ديوانه ١٧٧.

(٢) الديوان ٢٧٣-٢٧٥.

أشْ عَلَى حَدْ من حَدْ   إفْهَمُوا ذِي الإشارة
وانْظُرُوا كِبْرَ سِنّي   والعصا والغَرَارَه
هكذا عِشْتُ في فاسْ   وكذاك هُونْ هُونِي
أشْ عَلَيَّا مِنَ النَّاس   وأش على النَّاسِ منّي
ومأحْسَنْ كَلامُو   إذْ يَخْطُرُ في الأسْواق
وتَرَى أهْلَ الحوانتْ   تلْتفِتْ لُو بالأعناقْ
بغَراره في عُنْقُوا   وعُكَيْكِزْ وأقراق
شُوَيْخ مَبْنِي عَلَى أساس   كما أنشا الله مَبْنِي
أش عليَّا مِنَ النَّاس   وأشْ على النَّاسِ منّي
لَوْ تَرَى ذا الشويَّخ   مَا أرَقُّوا بمعنى
إلتفتْ لِي وقالْ لِي   أش نراكْ تَتْبَعْنا
أنَا نَنْصِبْ لِي زَنْبِيل   يَرْحَمُوا مَن رَحِمْنا
وأقامُوا بَيْن أجناس   ويقُول دَعْنِي دَعْنِي
أش عليَّا مِنَ النَّاس   وأشْ عَلَى النَّاسِ منّي
مَنْ عَمِلْ يابْنِي طَيِّبْ   مايُصِيب إلاَّ طَيِّب
لِعُيوبُوا سَيَنْظُر   وفِعالُوا يُعَيِّب
والْمُقارِبْ بِحالي   يَبْقَى بَرًّا مُسَيِّب
مَنْ مَعُوا طِيبَةَ أنفاس   يدْرِي عُذْرَ المغنّى
أش عليَّا مِنَ النَّاس   وأشْ عَلَى النَّاسِ منّي
وكذاكْ إشْتغالُوا   بالصَّلاهْ على مُحَمَّد
والرِّضَا عَنْ وَزِيروا   أبي بَكْرِ الْمُمَجَّدْ

وعُمَر قائِلَ الحقِّ   وشَهيد كُلِّ مَشْهَد
وعَلِى مُفْتِى الأَرْجاس   إذا يَضْرِبْ مايْثني
أش عليَّا مِنَ النَّاس   وأشْ عَلى النَّاسِ منّي
يا إلهي رَجَوْتُك   جُدْ عَلَيَّا بِتَوْبَه
بالنَّبي قَد سألتُكْ   والكِرامِ الأحِبه
الرَّجِيم قد شَغَلْني   وأنا مَعُوا في نُشْبَه
قد مَلاَ قلْبي وَسْواس   مِمَّا هُو يَبْغِى مِنِّي
أش عليَّا مِنَ النَّاس   وأشْ عَلى النَّاسِ منِّي
ثمَّ وَصْفُ الشُّوِيِّخْ   في مَعاني نِظامي
وإنِّي خَوَّاص ونُقْري   لأهل فَنِّى سَلامي
وإذا جَوَّزُونِي   نقُل أوَّلْ كَلامِي
شُويْخ من أرضِ مِكْناس   وسْطَ الأسْواق يُغَنِّي
أش عليَّا مِنَ النَّاس   وأشْ عَلى النَّاسِ منِّي

ثانيا- النثر الفني في الأندلس:

الكتابة الديوانية

بدأت النُّصوص النَّثرية في الأندلس ـ كما بدأ الشعر ـ بالقليل المرويّ عن شخصياتٍ مشرقية دخلت الأندلس واستقرت هناك من الولاة، والقادة، وذوي المكانة الذين تُحْفَظُ عنهم الآثار والأخبار.

وهذا خبر رواه صاحب (البيان المُغرب)[1] عن عُبَيد الله بن الحَبْحاب الذي كان والياً على إفريقية والمغرب والأندلس، وكان رئيساً نبيلاً، وأميراً جليلاً بارعاً في الخطابة والفصاحة. واتّفق أنْ وَرد على عبيد الله بن الحبحاب عقبةُ بن الحجّاج السّلولي يهنئه بالولاية فأكرمه عُبيد الله، وبالغ في إكرامه فاغتاظَ أبناء عبيد الله لذلك، وعرف عبيد الله من أبنائه موقفهم؛ فجمع الناس، وقام فيهم خطيباً فقال:

((أيُّها الناس! إنّ بَنِيَّ هؤلاء غَرَّتْهُم غِرّة الشّيطان لعِزّة السُّلطان[2] فأرادوا أمراً أخْرُجُ به عن الحقّ، وأنكروا ما رأَوْا من برّي لهذا الرَّجُل. وإنما أُخبركم أنه مولاي (من معنى المولى: السيّد) وأن أباه أعتق أبي!وأنا أكرهُ كِتمان أمرٍ، الله سُبحانه شَهِيد عليَّ به))!

وهذا القدر من الكلام يدل على الإيجاز والاختصار، والقصد إلى إبلاغ الأفهام مجرّداً عن زينة وزخرف؛ وهو كلام مباشر: أدّى الغرض، وأبلغ المَقْصُود.

وفي رسالة من عبد العزيز بن موسى بن نُصَير، وهي نصّ معاهدة مُبرمةٍ مع تُدْمير آخر ولاة القُوط على منطقة فتحها عبد العزيز أو أعاد فتحها:

---

(١) البيان المغرب لابن عذاري ١/٥٠ ـ ٥١

(٢) يقول: إنهم داخلهم الغرور بوسوسة من الشيطان، وهي غِرّة الشيطان وغروره بما ناهم، ونال أباهم من السلطان من عِزّة السُّلطان وهي قوة الحكم وسطوته.

((من عبد العزيز إلى تُدمير: أنّه نزل على الصُّلح، وأنّ له عهد الله وذمّته: ألاّ يُنزع عن ملكه، ولا أحد من النصارى عن أملاكه، وأنّهم لا يُقتلون ولا يُسْبَوْن: أولادهم ونساؤهم، ولا يُكْرَهُون على دينهم، ولا تُحْرَقُ كنائسهم ما تَعبَّد ونصَح، وأنه لا يؤوي لنا عدوّاً، ولا يخونُ لنا أميناً، ولا يكتم خبراً علمه)).

والنصّ يذكرنا بالنصوص المشابهة في صدر الدولة الإسلامية في عصر الخلفاء الراشدين، والدولة الأمويّة.

٢ ـ استقرت أحوال الأندلس من النّاحية الإداريّة، في عصر الإمارة الأمويّة، وتبع ذلك كثرة الكتّاب الذين كانت تناط بهم المهامّ الإداريّة في دائرة الدولة المختلفة. وكان لا بدّ للكاتب ـ لكي يصل إلى رُتبة الكتابة ـ من أن ينال حظّاً من الثقافة والمعرفة والمعلومات العامة من جهة، ومن المعلومات الخاصة التي تؤهله للعمل في الكتابة الديوانيّة، وتسيير الشؤون المناسبة.

وكانت رُتبة الكاتب، رتبة رفيعة في الأندلس. وكانت لفظة الكاتب تُطلق[١] على: كُتّاب الرَّسائل، وكُتّاب الزِّمام. أما كتابة الرسائل فمعروفة، وأما كتابة الزِّمام فينخفض بها المسؤولُ عن شؤون الخراج. ويضاف إلى هذين النوعين من الكتّاب، الكاتب الخاصّ، وكان لدى كلّ أمير كاتب خاص. وكانوا يُطلقون عبارة (الكتابة العليا) على الهيئة العامة للكتابة في الدَّولة أو الإمارة.

والنُّصوص في صدر الدولة الأمويّة قليلة لا تقدّم القدر الوافي من أنواع الترسُّل لإقامة دراسة موسَّعة، تُطلق فيها الأحكامُ عن استقراء كاف. وعلى ذلك يستظهر الدارسون من خلال النُّصوص اليسيرة المفرَّقة في الأُصول والمصادر سمات عامّة للكتابة في هذه المدّة. من ذلك قول بعض الدارسين المعاصرين[٢]: إن الكتابة الرسمية تدلُّ ـ في هذه المرحلة ـ ((على تفضيل الإيجاز والقصد في التعبير وإيثار المعنى)). ومن هنا فضّلوا الرسائل القصار، والأجوبة القريبة من شكل التوقيعات[٣].

---

(١) تاريخ الأدب الأندلسي ـ عصر سيادة قرطبة ـ د. إحسان عباس: ٣٢٥.

(٢) المصدر نفسه: ٣٢٦. وهذا مطابق لموقف عبد الرحمن الدّاخل في أساليب الكتابة.

(٣) راجع إحكام صنعة الكلام محمد بن عبد الغفور الكلاعي: باب التوقيعات.

ومن النُّصوص في هذا العصر ما أورده ابن عذاري في تاريخه[١] قال:

((كان الإمام عبد الرحمن (أي ابن معاوية الداخل) فصيحاً بليغاً، حسَن التوقيع، جيّد الفصول، مطبوع الشعر. ومما أمْلاهُ على كاتبه إلى سليمان بن الأعرابيّ:

أما بعد[٢]:فدَعْني من مَعاريض المَعاذِير، والتّعسُّف عن جَادَّة الطريق. لَتمدَّنَّ يَداً إلى الطّاعة، والاعتصامِ بحبلِ الجَماعة، أو لأُلْقَيَنَّ بَنانَها على رَضْفِ المعْصية، نَكالاً بما قدَّمت يداك، وما الله بظلاّمٍ للعَبيد)).

والمعاريض ما عُرض به ووُرِّيَ. والرّضف: الحجارة المحمّاة.

- ونقل ابن عذاري أيضاً قال: كتب أمية بن زيد كاتب عبد الرحمن الداخل إلى بعض عُمّاله يَستقصره فيما فرَّط من عمله. فأكثرَ وأطال الكتاب. فلما لحظهُ عبد الرحمن بن معاوية، أمر بقطعه؛ لطوله، وكتب بخط يده: ((أمّا بعد، فإن يكن التّقصيرُ لَكَ مُقدّماً فَعسى الاكتفاء أن يكون لك مؤخراً. وقد علمتَ بما تقدَّمت، فاعتمد على أيّهما أحببت)).

وهذا كتابٌ قريبٌ من كتابٍ بعث به الخليفة الأموي يزيد على الوليد كما رواه الجاحظ[٣] :

((بسم الله الرحمن الرحيم. من عبد الله أمير المؤمنين يزيد بن الوليد إلى مروان بن محمد: أمَّا بعد فإني أراك تُقدّم رِجلاً وتؤخّر أُخرى، فإذا أتاك كتابي هذا فاعتمِد على أيّهما شِئت والسلام)).

- وكان مروان بن محمد قد تلكأ في المبايعة ليزيد بن الوليد.

---

(١) البيان المغرب ٢/٥٨

(٢) البيان والتبيين: ٢/٣٠٢

(٣) البيان والتبيين ٢/٣٠٢

ومن توقيعات الأمير عبد الرحمن بن الحكم (٢٠٦ ـ ٢٣٨ هـ) ماكتبه على رُقعة أحد رجاله، وذلك أن عبد الرحمن أعطى المغني زرياب ثلاثة آلاف دينار، ولحقه أولاده وحشمه يطلبون منه شيئاً منها، فنثرها عليهم جميعاً، فكتب ذلك الرجل بخبر زرياب بصيغة السِّعاية، فعلَّق على ذلك ووقَّع بما نصّه:

((نبَّهتَ على شيءٍ كنا نحتاج التنبيه عليه، وإنما رزقُه نطق على لسانك، وقد رأينا أنه لم يفعل ذلك إلا ليحَبّبنا لأهلِ داره، ويغمرَهم بِنِعَمنا، وقد شكرناه، وأمرنا لهُ بالمال المتقدم ليُمسكه لنفسه. فإن كان عندك في حَقِّهِ مضرَّةٌ أُخرى فارفَعها إلينا))[1].

والنصُّ، رسالة قصيرة، من نوع التوقيعات. ويظهر فيها الأسلوب المُرسل القاصِد، الذي يكتفي بعرض المعنى المقصود في أقرب الألفاظ، وألصقها بالغرض.

ـ وعُرف الأمير عبد الله بن محمد بأنه كان متفنّناً في ضروب العلوم، فصيح اللسان، حسن البيان، بَصِيراً باللغات، (وفي رواية للنص: بصيراً بلغات العرب، وهذا هو المقصود)، حافظاً لأشعار العرب، وأيامها وسير الخلفاء.. إلخ .. وأملى كتاباً إلى بعض عماله[2] فيه:

((أما بعد. فلو كان نظرُك فيما خَصصناك به، واهتبالُكَ به على حسب مُراترَتك بالكتب واشتغالك بذلك عن مُهِمّ أمرك، لكنتَ من أحسن رجالنا غَناء، وأتمّهم نظراً، وأفضلهم حَزْماً. فأقِلِلْ الكَتْبَ (الكتابة) فيما لا وجه له ولا نفع فيه. واصرفْ همتك وفكرك وعنايتك إلى ما يبدو فيه اكتفاؤك، ويظهر فيه غناؤك، إن شاء الله)).

ـ وبعث وليد بن عبد الرحمن بن غانم رسالة إلى الأمير محمد يسأله فيها، بأسلوب لطيف أن يقرّبه ويسند إليه بعض المناصب الكبيرة:

---

(١) البيان المغرب ١٥٢/٢

(٢) البيان المغرب ١٥٤/٢

((عَظُمت نِعمةُ الأمير ـ أبقاهُ الله ـ عن الشُّكر، وجلَّت أياديه عن النشر. فمتى رُمْتُ شكر أدنى ما غمرني، وحمد أيسر ما اشتملَ عليَّ تكاءَدني الشكر[1]، وعَجز بي الجَهد، ولستُ بمؤمّل مع ذلك عن الاستفراغ في القول، والاجتهادِ في العمل؛ إذ لم أرهما يَدوران إلا على نعمةٍ أزلفتْ، ويقتصران إلاّ على زيادة انتُظرتْ، وأنا بهما مخيّم، وعليهما معوّلٌ، والله الناقلُ لعباده بطاعتهم لهُ، وشكرهم أياديه، من دارِ الشقوة إلى دار السّعادة، ومن نَصبِ العاجلة إلى راحة الآجلة)).

وردَّ عليه الأمير محمد:

((إنَّ الله شاكرٌ يحبُّ الشاكرين، وقد ناديتَ فأسمعت، ولكلّ أجلٍ كتاب)).

ـ وتظهر على الرّسالة بوضوح آثارُ الأسلوب المرسل المجوّد، الذي يعتني بالعبارة الواضحة، والفكرة الجلية، في ثوبٍ من الألفاظ المعبّرة الدالّة، المنتقاة لملاءمة المعنى من جهة، وإيقاع الصدى في النفس من جهة أخرى. وفي الرسالة من الأسلوب الذي انتهى إليه الجاحظ ملامحُ واضحة.

وتدور النصوص الباقية من فترة الإمارة المروانية حول: المراسلات السياسية، والمراسلات الإدارية، وكتب المبايعة والتولية وعقود الأمان والتوقيعات.

وفي الأصول الأندلسية والمغربية نُتف يسيرة في النثر التأليفي المتبقّي من هذه المدة.

ونشير هنا إلى رأي الدكتور إحسان عباس الذي أورده، وهو يناقش النصوص النثرية الأندلسية إلى أواسط القرن الهجري الرابع فقد قال:

((وظل أمر الكتابة بسيطاً، لا تحلية فيه، حتى أواخر أيام المستنصر، وكان السَّجع يجيءُ في الرَّسائل عفواً دون تعمُّد، حتى مقدّمات الكتب، كمقدمة كتاب (قُضاة قرطبة) للخُشني. طلَّت عارية من السجع إلا فيما ندر.

---

(١) تكاءدني الشكر: صَعب وشقّ.

وجعل الدكتور عباس الكتابة الفنية في الأندلس منذ البداية إلى أواسط القرن الخامس في مرحلتين.

المرحلة الأولى: وقد بيَّنا رأيه فيها من خلال النصوص القليلة المبثوثة.

والمرحلة الثانية: التي تبدأ في أواسط القرن الرابع، وتمتد إلى ما بعد منتصف القرن الخامس. وفيها من الكُتّاب: ابنُ بُرد الأكبر، وعبد الملك بن إدريس الجزيري، وابن دراج القسطلي، وابن شُهَيد، وابنا حزم (أبو محمد، وأبو المغيرة) والحنّاط، وابن حَيّان المؤرخ وابن زيدون وغيرهم.

وهي قسمةٌ مقبولة. وسيظهر فيما وراء المرحلة الأولى من هؤلاء الكتاب من يرسِّخ قواعد الكتابة وأصولها ويترك آثاراً كتابيّة واضحة الخصائص، ومَنْ تميَّز بطريقةٍ في الكتابة لا تعدّ محاكاة خالصة لأدباء المشرق. وفي أخبارهم أن الأندلسيين كانوا يتناقلون رسائل ابن درّاج القسطلي ويُعجَبُون بها. وكان رؤوس الكتّاب يَطلبون ممن يزاول هذا العمل الإتقان والتجويد كالذي نجده في أخبار والد الفقيه أبي محمد بن حزم، وكان كاتباً مشهوراً في الدولة العامرية: ((إني لأعجبُ ممن يلحنُ في مخاطبة أو يجيءُ بلفظة قلقة في مكاتبة؛ لأنه ينبغي أنه إذا شكَّ في شيءٍ أن يتركه ويطلب غيره، فالكلام أوسعُ من هذا)).

وألَّف ابنُ شُهَيد كتباً في البلاغة، تحدث فيها عن أساليب الكتابة وأصولها. ومما بقي من آثاره، وقد أورده عَرَضاً في (رسالة التوابع والزوابع)[1]، تقسيمه لمراحل تطوّر الأساليب النثرية؛ وجعلها أربعة أنواع:

أ ـ طريقة الكتاب الأوائل الذين كانوا في صدر الإسلام.

ب ـ ثم طريقة عبد الحميد، وابن المقفع، والجاحظ وسهل بن هارون.

جـ ـ ثم طريقة بديع الزّمان الهمذاني، وشمس المعالي قابوس بن وشمكير وغيرها. وتبرز في هذه المدة أنماطٌ أُخر من الكتابة الرسمية (الديوانية) في

---

(١) راجع رسالة التوابع والزوابع لابن شُهَيد في الجزء الأول من القسم الأول من الذخيرة.

موضوعات كانت من مجال القضايا الشعرية، التي تعتمد الخيال، ونجد أمثلة لذلك في رسائل ابن شُهَيد، وأبي حفص بن بُرد الأصغر: كرسالة المفاخرة بين السيف والقلم.

وقد ظهر عددٌ من الكتاب والخطباء في مدّة خلافة عبد الرحمن الناصر (٣٠٠ ـ ٣٥٠ هـ) وهيأ استقرارُ الدولة للتبحّر في الأمور الثقافية والعمرانيّة والحياتيّة. ومن الرسائل الباقية من مدة عبد الرحمن الناصر، رسالة سلطانيةٌ (منشور) وجّهه إلى حكام الأقاليم ليخبرهم باتخاذ لقب (الخليفة)، قال فيه:

((بسم الله الرّحمن الرّحيم. أما بعد! فإنا أحقُّ من استَوفى حقّه، وأجدر من استكمَل حظّه، ولَبِس من كرامة اللهِ ما ألبسه، للذي فضّلنا به، وأظهر أثرتنا فيه، ورفع سلطاننا إليه، ويسَّر على أيدينا دَركه، وسهَّل بدَولتنا. والحَمدُ للهِ وليِّ الإنعام بما أنعم به، وأهل الفضل بما تفضَّل علينا فيه.

وقد رأينا أن تكون الدعوةُ لنا بأمير المؤمنين، وخُروج الكتب عنا ووُرُودها علينا بذلك، إذ كلُّ مدعوٍّ بهذا الاسم غيرنا منتحلٌ له، ودخيلٌ فيه، ومتسمٍّ بما لا يستحقُّه. وعلمنا أنَّ التّمادي على ترك الواجبِ لنا من ذلك حَقٌّ أضعناه، واسمٌ ثابتٌ أسقطناه، فَأْمُرِ الخطيبَ أن يقولَ به، وأجْرِ مخاطبتك لنا عليه، إن شاء الله. والله المستعان))[1].

ولا يختلف الأسلوب في هذا المنشور (الرّسالة / الكتاب) عن أساليب المرحلة الأولى من الاعتدال والقصد والجلاء، وطلب الفكرة، وإيضاحها بعبارة بسيطة دالّة. ولا نلمحُ أثراً للسّجع والتكلّف، ولا أثراً لصنعة زائدة، سوى هذه القسمة في العبارات، والتوازن ـ أحياناً ـ مع دقة في اجتلاب الكلمة المناسبة، وبراعة في اختيار المعاني، في تلوينٍ صوتي مُعجب.

---

(١) النص في البيان المغرب لابن عذاري ١٩٨/٢ ـ ١٩٩، وتاريخ هذا المنشور هو سنة ٣١٦ هـ.

وهكذا: جرت أَحوال الكتابة الديوانية على الأَحوال المألوفة منذ عهد عبد الرحمن الداخل إلى عهد عبد الرّحمن الأوسط الذي يُعَدُّ ((مؤسّس الحَضارة الأَندلسيّة ونظمها الإدارية))[١]، فقد اتخذ ما يماثل مجلس الوزراء، وقسم شؤون الدولة في القضاء والمال والحرب وغير ذلك إلى خطط، واقتضى ذلك تعدد الكتّاب مع الوزراء وأصحاب الخطط، ممّا كان له أثره في نهضة الكتابة الديوانية.

ويحفظ التاريخ أَسماء عدد كبير من كُتّاب الدولة الأُمويّة الذين ساروا على الأسلوب المرسل في الكتابة حتى كان زمانُ هشام بن الحكم؛ ومدبّر دولته الحاجب المنصور، وولديه المظفر والناصر فظهرت الرسائل الديوانية المسجوعة كما في كتابة ابن بُرْد الأَكْبر (ت ٤١٨ هـ).

٣ ـ فلما أظلّت الأَندلس دولُ الطّوائف كَثُر كتاب الدواوين كثرةً بالغة؛ فقد صار كل بلاطٍ أو قصرٍ أو دار حكمٍ في مدينةٍ أو مقاطعة في حاجة إلى رُسوم السُّلطة وأُبَّهة الْمُلك. وكان الكاتب (الوزير في الوقت نفسه غالباً) أَبْرزَ تلك الرسوم ومِلْحَها الأَساسيّ، وأصبح السَّجع في رسائل الكتّاب: ((أشبه بقانونٍ عامٍّ في جميع الرّسائل الديوانيّة))[٢].

ومن هؤلاء الكُتّاب في هذه المُدّة ابن بُرد الأصغر كاتب معن بن صُمادح أَمير المَرِيّةِ، وأبو محمد بن عبد البَرّ كاتبُ مُجاهد العامِريّ وابنه عليّ؛ وكانوا في دانية بشرق الأَندلس، وأَبو المُطَرّف بن مثنّى كاتب المأمون بن ذي النون صاحب طليطلة، ومحمّد بن أيمن كاتب المتوكل بن الأفطس صاحب بَطَلْيَوس.

ولابن أيمن رسالة كتبها عن المتوكّل المذكور إلى يوسف بن تاشفين أمير المغرب يستنجد به باسمه وباسم الأندلس كلها ضد ألفونس (يسمّيه العرب أذفونش) ملك قشتالة وغيره من ملوك نصارى الشمال الطّامعين، الذين أنهكوا البلاد والعباد، قال:

---

(١) الأندلس. د. شوقي ضيف: ٣٩٢

(٢) المصدر نفسه: ٣٩٤.

((... لمّا كان نور الهدى دليلك، وسبيل الخير سبيلك؛ ووضحت في الصّلاح معالِمُك، ووقفت على الجهاد عَزائمك؛ وصحَّ العِلْمُ بأَنّك لدعوةِ الإسلام أَعزُّ ناصر، وعلى غَزْوك الشّرك أَقْدر قادِرْ؛ وجب أن تُسْتَدعى لِمَا أعضل من الدّاء، وتُستغاث لما أحاط بالجزيرة من البلاء. فقد كانت طوائف العدو المُطيفة، بها ـ أهلكهم الله ـ عند إفراطِ تَسلُّطها واعتدائها، وشدّة كَلَبها واستشرائها، تلاطَفُ بالاحتيال، وتُستنزَلُ بالأَموال...)).

وتستمرُّ الرسالة على هذا النمط من الأُسلوب المسجوع، على أنه أسلوبٌ مقبول، وسَجْعُه غير ثقيل؛ ومقدرة الكاتب اللغوية أتاحت له اختيار المناسب من الألفاظ فجاءت مناسبةً، حسنة القَبُول.

والموضوع كان ابن الساعة آنذاك. لقد انضمّ ابن الأفطس إلى الجمهرة الأندلسية، وهي تدعو ابن تاشفين لدخول الأندلس وردّ عادية غزاة الشمال.

٤ ـ وعَصْر الطوائف أفضى بكثير من كتّابه وأُدبائه إلى عصر المرابطين[1]، وبَرز من كتّاب أمراء المرابطين وحكّام المناطق أبو القاسم بن الجَدّ، وأبو عبد الله بن أبي الخصال (وهما من كتّاب أمير المسلمين عليّ بن يوسف بن تاشفين، وسنقف وقفة خاصّة عند ابن أَبي الخصال) وفيهم عبد المجيد بن عبدون وكان شاعراً وكاتباً، وأبو الحسن عليّ بن الإمام.

ـ وبرز من كتّاب دولة الموحّدين ابن عَيّاش (أبو عبد الله محمد ٥٠٠ ـ ٥٨٦ هـ) وأبو عبد الله محمد بن يَخْلُفْتن الفازاري القرطبي، وابن جُبَير صاحب الرحلة ولنا معه وقفة خاصّة، وابن هَرَوْدس (وكان شاعراً ووشّاحاً أيضاً).

ـ وأعْقَب دولة الموحدين، وكان في أَثناء أَيّامها الأخيرة، مجموعة من المتغلبين على بعض مناطق الأندلس في ما عُرِف في التاريخ أحياناً باسم عصر الطوائف الثاني. وأثّر هذا في ظهور مهمّة الكاتب (والكاتب شخصية ملازمة لكل أمير

(١) يدرس عصر المرابطين من الناحية الأدبية ـ عادةً ـ مع مدّة الطوائف.

أو حاكم أو متنفّذ يحاول سلطة أو حُكماً) إلى أن استقرت أحوال الأندلس الباقية في يد محمد بن الأحمر (مؤسس دولة بني الأحمر، أو بني نصر) في مملكة غرناطة.

وفي كتاب هذه المدّة: أبو يحيى بن هشام القرطبي، وأبو جعفر بن طلحة، وابن الجَنّان، وأبُو المطرّف بن عميرة المخزومي (وكان شاعراً مشهوراً وكاتباً بارعاً) وابن الأبّار (وكان شاعراً أيضاً وله ديوان مطبوع).

ـ وأبو المطرّف هو أحمد بن عبد الله المخزومي[١] (٥٨٢ ـ ٦٥٨ هـ) من أهل جزيرة شقر (مدينة ابن خفاجة) طلب العلم في مدن كثيرة، واشتغل بالكتابة في بلنسية ومرسية وإشبيلية عند عدد من الأمراء والحكّام. وعبر البحر إلى سبتة في مدّة اضطراب الأندلس، عند واليها ابن خلاص، ودخل مراكش مع الخليفة الموحّدي الرشيد، وخدم غيره من خلفائهم، ثم دخل تونس. وجال في عدد من مدن المغرب الأدنى والأوسط. وخدم بعض خلفاء الحفصيّين في تونس إلى وفاته غريباً عن وطنه سنة (٦٥٨ هـ).

ولأبي المطرف رسائل مجموعة[٢]. ومنها رسالة كتب بها عن ابن هود، فيها عقد ابن هود على أهل شاطبة الولاء للخليفة العباسي ببغداد المستنصر، وفيها البيعة لنفسه، ولابنه وليّاً للعهد من بعده، جاء في ذلك العقد:

((الحمد لله الذي جعل الأرض قراراً، وأرسل السماء مدراراً، وسخّر ليلاً ونهاراً، وقدّر آجالاً وأعماراً، وخلق الخَلْق أطواراً، وجعل لهم إرادةً واختياراً، وأوجد لهم تفكُّراً واعتباراً، وتعاهدهم برحمته صغاراً وكباراً.

---

(١) ترجم له في معجم أصحاب الصّدفي ١٦٣، وتحفة القادم الترجمة ٩٢، واختصار القدح المعلّى ٤٢، والمغرب ٣٦٣/٢، وجذوة الاقتباس ٧٢، وعنوان الدراية ١٧٨، والإحاطة ١٧٣/١
ـ وللدكتور محمد بن شريفة دراسة عن أبي المطرّف (ط الرباط) نشر المركز الجامعي للبحث العلمي.
(٢) لأبي المطرف رسائل مجموعة في كتاب (في الرباط ـ بالخزانة العامة مخطوطتان منه).

نحمده حَمْدَ من يرجو له وقاراً، ونبرأ ممن عانده استكباراً، وأَلْحَدَ في آياته سفاهةً واغتراراً.

وصلى الله على سَيّدنا محمد الشريف نجاراً، السامي فخاراً، رفع الله من شريعته للأُمّة مناراً، وأطفأ برسالته للشّرك ناراً، حتى علا الإسلامُ مقداراً، وعزّ جاراً وداراً، وأذعن له الكفر اضطراراً، واستسلم ذلّةً وصغاراً، فمضى وقد ملأ البسيطة أنواراً، وعمَّها بدعوته أنجاداً وأغواراً، وأوجب لولاة العهد بعده طاعةً وائتماراً...)).

ويستمرّ العقد على هذه الصُّورة من العناية، والأَناقة، والصنعة الفنية. ويلاحظ القارئ التّطويل، واستعراض المقدرة البيانيّة، ولجوء الكاتب للأسلوب المسجوع. وزيادة: لزوم مالا يلزم، ذلك بأنّه التزم حرف الراء في السّجع.

وعلى الرغم من إحكام الصنعة ولزوم مالا يلزم جاء النصّ منساباً في أفكاره، ومقاصده، وساعد الكاتبَ على هذا مقدرته اللغوية، وسعة معجمه اللغوي، وإتقانه صنعة الكتابة.

٥-الكتابة في عصر غرناطة

معروفٌ من المقدّمات التاريخية أن الأَندلس صغرت في المكان والسّيطرة على البلاد، وانحازت إلى قطاع من الجزيرة الكبيرة في الجنوب والجنوب الشرقي الذي شكّل دولة غرناطة (دولة بني نصر - بني الأحمر).

ولكن الأندلس بقيت على المتابعة الحضاريّة التي عرفتها أيام العزّ القديم، مع الامتثال للظروف الجديدة، والمُعْطيات الحاضرة.

أما الشعر والكتابة فاستمرت الحال معهما على النّشاط، بل عادت إلى بعض الأغراض الأدبية صَحْوَتُها في ظلال دولة غرناطة. وقد نبغ في الكتابة أدباء كانوا هم أيضاً البارعين في الشّعر، على نَمطٍ يقلُّ وجودهُ مثل ابن الحكيم الرُّندي، وأبي الحسن بن الجَيّاب، ولسان الدين بن الخطيب، وابن زَمْرَك...

وظهرت أُسَرٌ اشتهر أفراد كثيرون منها بالإبداع الأدبي، ونذكر من الكتاب أسرة بني الخطيب وفيهم لسان الدين، وأبوه، وابنه، وأُسرة بني جُزَيّ، وهم جمهرة، فيهم ابن جزيّ الذي دوّن رحلة ابن بطوطة، وأسرة بني الحكيم وأصلُهم من مدينة رُندة[١].

وفي (نفح الطيب) و (أزهار الرّياض) وغيرهما نماذج من الرسائل الأدبية من هذا العصر تشير إلى استمرار نهضة الأَدب، وظهور الكتّاب البارعين الذين تخرَّجوا في دواوين الدَّولة الرسمية من جهة وتحت نظر العلماء والأُدباء في مجالس الدرس والبحث والعلم من جهة ثانية.

والأدب في هذه المدّة، والنثر الفني خاصّة، يتجاوز مرحلة نهضة النثر إلى مرحلة تالية لها، كما يقدّر الدكتور ضيف.

فبعد نهضة النّثر الفنّي في الأندلس، وبروز أعلامه الكبار، ظهرت عليه علامات المراوحة في المكان، وعدم التّجديد المؤدي إلى حيوية الكتابة أو ما سمّاه د. ضيف: جمود النّثر الفنّي[٢]، فالأدب الذي يظهر ــ كما يقول ــ هو أدب مكرّر مُعاد: كرّرت أساليبه، وأُعيدت عباراته مئات المرّات بل آلاف المرّات، ولا جديد فيه إلاّ ما يتصنّع له الكاتب من مصطلح علمي أو لون بديعي أو إشارة إلى مَثل، أو استخدامٍ لغريب؛ أو نحو ذلك مما كان يُعدّ آيةً في هذه العصور على بلاغة الكاتب ومهارته الفنية.

ولقد نبغ لسانُ الدّين بن الخطيب في القرن الثامن الهجري وكان أعجوبة عصره في الجمع بين السياسة والأدب، وفي الجمع بين الشعر والنّثر، وفي تنوّع الاهتمام بفنون شتى مختلفات، وهو ـ كما يصفه في الفنّ ومذاهبه ـ أبرع كاتب

---

(١) للتفصيل: انظر الدراسة المفصلة عن (ابن الأحمر) وكتابه نثير فرائد الجمان في كتابنا: نثير فرائد الجمان في نظم فحول الزمان، لأبي الوليد بن الأحمر ـ طبع دار الثقافة ـ بيروت ــ ١٩٦٧ ــ وتحقيق محمد رضوان الداية.

(٢) الفنّ ومذاهبه في النثر العربي (ط ٩): ٣٣٢

أخرجته الأندلس في عُصورها الأخيرة وهو لم يقف في كتابته عند الرسائل الديوانية أو الشخصية بل كتب كتباً كبيرة في التاريخ والتصوف والموسيقى والفقه والطّب، ونهج لسان الدين في كتبه نهج السّجع وإن لم يلتزمه دائماً. وكان له نفس طويل يظهر في رسائله المُسهبة. وقد تنبّه المقّري إلى الكثرة والطول في رسائله فقال فيه:

((إنه كاتب مترسل بليغ لولا ما في إنشائه من الإكثار الذي لا يخلو من عثار؛ والإطناب الذي يُفضي إلى الاجتناب، والإسهاب الذي يَقُدّ الإهاب)).

وقد نَبّه لسان الدين على غلبة السجع على ذوق العصر، وهو يخرج عن ذلك الذّوق؛ عودةً إلى الأصل وهو الكلام المُرسل؛ قال في مقدمة رسالة من رسائله الديوانية ـ السلطانية[1]: ((ولما وصل السلطان أيّده الله من غزاة أطريرة بعد استفتاح حصن أشر المتقدّم الذّكر[2]، صدر عني في التعريف بذلك سلطان المغرب ((وهو من الكلام المرسل الذي قلّما ألوى على سجع، ولا وقف على قافية))؛ لشفوف هذا الغرض في هذه الأقطار.

فالناس آنذاك يسجلون رسائلهم بالأسلوب المسجوع، ولكنّ بعضهم يكتب بالأسلوب المُرْسَل، كما أن الذين يتخذون أسلوب السّجع يخرجون عنه إلى المرسل أيضاً.

ويلاحظ أن بعض المؤلفات كانت تدوّن بالأسلوب المسجوع كالذي نراه في (الكتيبة الكامنة في من لقيناه بالأندلس من أهل المئة الثامنة) للسان الدين وفي (نثير الجمان في من جمعني وإياه الزمان) لأبي الوليد بن الأحمر.

وتفنن لسان الدين في السجع، وخرج أحياناً إلى ما سمّاه د. ضيف السجع المركّب (في مقابلة السّجع البسيط). ففي القطعة التالية من إحدى رسائله بنى

---

(١) ريحانة الكتاب ١/١٥٢ وهي رسالة من سلطان الأندلس إلى سلطان المغرب.

(٢) في رسالة سابقة.

الكلام على سجعة الفاء، ثم داخل بين أجزاء الجملة بحرف آخر، حتى يكون في كل فقرة سجعة الفاء في آخرها إلى جانب سجعة أو أكثر بحرف آخر، قال مثلاً:

((الخلافةُ التي ارتفع عن عقائد فضلها الأصيل قواعد الخلاف؛ واستقلت مباني فخرها الشائع، وعزّها الذائع، على ما أسّسه الأسلاف؛ ووجب لحقها الجازم وفرضها اللازم، الاعتراف؛ ووسعت الآملين لها الجوانب الرحيبة والأكناف؛ فامتزاجنا بعلائها المنيف، وولائها الشريف كما امتزج الماء والسُّلاف؛ وثناؤنا على مجدها الكريم، وفضلها العميم، كما تأرّجت الرياض الأفواف...)).

فنلاحظ العين سجعة مستقلة داخل الفقرة الأولى، والميم في الفقرة الثانية، والفاء في الثالثة، والميم في الرابعة، مع بقاء السجعة الأصلية: الفاء المسبوقة بألف ممدودة.

وكان (البديع) بفنونه المختلفة بين يدي الكاتب ليختار منه ما يزيّن به كتابته، ويرصّع أسلوبه، كاللجوء إلى الجِناس بأنواعه.

الرسائل الإخوانية

ويقال فيها: الرسائل الشخصيّة؛ لإظهار اختلافها عن الرسائل السلطانية أو الديوانيّة. وهي رسائل يعبّر فيها الكاتب عن قضايا خاصّة وأمور شخصيّة، أو تتعلق بشأن من شؤونه في علاقاته مع الأهل والأصدقاء ممّن قَرُب مكانُه أو بَعُد مزاره، ويدخلُ في ذلك التهاني، والعتاب، والاستعطاف، والاعتذار، والتّعازي، والثّناء والشكر، وما شابه ذلك من الموضوعات والأَغراض.

ومن المألوف أن يكون كُتّاب الدواوين المشهورون هم كُتّاب الرّسائل الإخوانية والشخصية في أَغْلب الأَحوال.

١ - ومن أوائل من بقي شيء من رسائلهم ابن درّاج القسطلي الذي اشتهر شاعراً كبيراً أيام الحاجب المنصور، وفي أوائل القرن الخامس. وقد أثنى ابنُ شُهَيد وابن حزم على رسائله؛ وهي مفقودة إلا النُّتف اليسيرة في كتاب الذخيرة[1].

ومن نثره قطعة يُثني فيها على منذر بن يَحْيى، فيها:

((حَيّاك بتحية المُلك مَنْ أحْيا بك دعوة الحقّ، ورَدّاك رداءَ الإعظام مَنْ أعلى بك لواء الإسلام: مُجري الأقدار بإعلاء قدرك، ومُصرِّف الليل والنّهار بإعزاز نصرك، ومُظهر مَنْ أطاعك على من عصاك، ومدمِّر من عاداك بسيوف من والاك. قد جعل الله أوّل أسمائك أَوْلى بأعدائك، وأَقْرَبَ اعتزائك صفواً

---

(١) الذخيرة ١/١: ٦٢ - ٦٦

لأوليائك. ثم سَما بك حاجب الشمس، نوراً وأُنساً لهذا الإنس، ونفَس حياة لكلّ نفس:

ثم أحييتَ فَجْرَهُم يا ابن يَحْيى ... بسراجين: نور دين ودُنْيا
وخلفت السحاب ظلاًّ وَجُوداً ... فوسعت الإسلام سَقْياً ورَعْيا
وتحلّيت من ((تجيب)) سناء ... كنتَ فيه للدين والمُلك مَحْيا!

ونلاحظ في الرّسالة بواكير إحكام السَّجع في الرّسائل، ومحاولة الكاتب تركيب السّجع (اعتماد سجعة إضافية مع السّجعة الأصلية في العبارة) ممّا سنراقب التوسّع فيه، مع الأَعْصُرِ التّالية.

٢ ـ وكَثُر الكُتّاب في عصر دُول الطَّوائف كثرةً واضحة. ومعلومٌ أنَّ هذا العصر (القرن الخامس) شَهِدَ ظهورَ دُوَيلاتٍ وإمارات ورثت الدّولة الواحدةَ (دولة بني أُمَيّة) وهي إماراتٌ حرصت على اتّخاذ أُبّهة المُلك والسّلطان ومتمّمات رسوم الدّولة!

وعكست رسائلُ الأدباء الإخوانية (أو الشخصية) في هذا العصر ظروفه الاجتماعية، وحياة الأديب في ظلال ذلك الزمان المضطرب سياسياً، والمضطرب اجتماعياً أيضاً ـ بصفة عامّة ـ. ومثلما نجدُ رسائل الشكوى وقسوة الحياة من جهة نجدُ رسائل التّهاني، واللقاء على مجالس الأنس وحفلات الناس من جهة ثانية.

ونقرأ رسالةَ شُكر للوزير الكاتب أَبي عُمر بن الباجي[1] وهو من بلغاء الكُتّاب بالأَندلس، كتبها عن المُقتدر بن هود ملك سَرَقُسْطة إلى ابن ذي النُّون ملك طُلَيْطلَة يشكرُه فيها على إطلاق أبي مروان بن غُصن الحجاري من السّجن[2]. قال فيه:

((كتابي ـ أيّدك الله ـ كتابٌ أَعريْتُه من ذِكر الوداد، وعَدَلْتُ فيه عن وصف

---

(١) والكاتب هو يوسف بن جعفر الباجي كان فقيهاً جليل القَدْر. رحل إلى المشرق وحجّ. وولي قضاء حلب. وعاد إلى الأندلس، فجَلَّ قَدْرُه عند المقتدر بن هود ملك سرقسطة.

(٢) النصّ في الذخيرة ١٩٣/٢

الاعتقاد، خَرقاً لعادة المتودّدين، وصفحاً عن طريق المُتَصنّعين. على أنّي ـ علم الله ـ في الصدر المُقَدّم ممّن يُواليك، والرعيل الأوّل ممّن يتشيَّع فيك. وأفردتُه بشكر يدك البَيضاء، وحميد صنيعتك الغَرّاء، التي طوّقتَ بها جيدَ الأدب طوقاً يبقى على الحِقَب؛ ووضعتَ على نار الذّكاء وَقُوداً يسطعُ بطيب الثّناء. مزاحماً بهمّتَك كلكلَ الزّمان، وقد أناخَ على الفَهْمِ بجِران[1]، ومحافظاً على حُرمة الكَرَم وقد أعرضَ عن ثقلها الثّقلان، أنَفةً من أن يضيعَ حِذاءَ نظرك حقُّ أديب، وتُقطعُ بمَرْأى عينك نَفْسُ لبيب. وأنت عينُ الآداب، وعمدةُ ذوي الألباب؛ فيعود عليك من أهلها مَلام، ويقول قائلُها: ضاعَ عند أوفى البَريّة ذِمام. فللهِ هِمّتُكَ التي أبَتْ إلا الحفاظَ السّليم، وشيمَتُك التي لم تَرْضَ إلا المقام الكريم، ويَدُكَ التي انتعشت بها الأديبَ أبا مروان بن غُصن من هُوّة العِثار، وفككتَهُ من قبضة الإسار، فأحييتَهُ وهو مُشفٍ على البَوار[2] ...)).

فقد دخل الكاتب ـ دون مقدمات ـ في الموضوع، وأطال الثناء على ابن ذي النُّون لإطلاقه سراح الأديب ابن غُصن. بلغة حسنة، وعبارة قريبة، وحماسة قويّة لذلك الصنيع الكريم. وكأنّ الكاتب يجد في الدفاع عن ابن غصن دفاعاً عن (الأديب) عامّةً. والأسلوب مسجوع، لكنه سجع بسيط، لم يؤثّر في وضوح المعاني، ولم يقلل من حرارة الموقف وانفعال الكاتب.

٣ ـ وأدخل مؤرّخو الأدب في الرسائل الإخوانية رسائل متبادلة بين الأدباء في ما بينهم، وبينهم وبين غيرهم أيضاً، لها علاقة بالأزهار والأنوار سمّاها بعضهم: ((الرّسائل الزّهرية))[3]. ونجد منها في كتاب (الذخيرة) لابن بسّام، وفي كتاب (البديع في وصف الرّبيع) لأبي الوليد الحميري[4].

---

(١) الكلكل: الصّدر. والجِران: مقدّم عنق البعير من مَنْبَحِه إلى مَنْحَرِه. ويقال: ألقى فلان جرانه، وضرب بجرانه أي ثبت واستقرّ.

(٢) البوار: الهلاك.

(٣) الذّخيرة ٢/١٩٤ الحاشية: ٢

(٤) ويقال فيه: البديع في فصل الرّبيع. وله ـ إلى الآن ـ ثلاث طبعات بدأها المستشرق هنري بيريس ١٣٥٩ هـ.

ومن هذا المقصد رسالة للوزير الكاتب أبي مروان عبد الملك بن إدريس الجزيري[١] رفعها إلى المنصور (الحاجب) محمد بن أبي عامر عن بنفسج العامريّة؛ والرسالة ثناء وشكر ومديح من جهة، وكلام في (الزهريات) بمناسبة الربيع وزهر البنفسج من جهة أُخرى. قال[٢]:

((... إذا ترافعت الخُصوم وتنافرت في مفاخرها فإليك مَفْزَعُها وأنت المقنعُ في فصل القضيّة بينها، لاستيلائك على المفاخر بأَسْرِها، وعلمك بسِرّها وجهرها. وقد ذهب البَهارُ، والنَّرْجسُ في وصف محاسنهما، والفخر بمشابههما كلّ مَذْهب؛ وما منهما إلا ذو فضيلة غير أنَّ فضلي عليهما أوضح من الشمس التي تعلونا، وأعْرَفُ من الغمام الذي يسقينا...)).

وكتب الجزيري أيضاً إلى المنصور عن بَهار العامرية في كانون الأوّل سنة (٣٨٣ هـ)؛ وجَعل الكلام على لسان تلك الزهرة مباشرة على سبيل التخييل والتشخيص[٣]:

((... إني - أيَّد الله المنصور - لمّا استقلّت بزهرتها مائلةُ قُضبي، وتنبّهت من سِنَتها نائمةُ جفوني، ونَمّت بعطرها ساطعة روائحي، وافترشْتُ ديباج حديقةٍ بَكّر وسْمِيُّها، وتتابَع وَلِيُّها. فالتقى ثَرَياها، وأخذت الأرض زخرفها وازَّينت، وطار صعيدها حتى كأنَّ ترابَها فتيتُ المِسك، أو سحيقُ الكافور عَنّ لي زهو بحسني، وارتياحٌ لحالي، وإعجابٌ بمكاني. وشاركت ذلك دواعي هزّة الشوق إليك، وشواجي لوعة البعد عنك حين فارقْتَ محلّي، وآثَرْتَ بالزيارة غيري، فحرّكن مني ساكناً، وبعثن لي على مناجاة الشعر خاطرا...)).

ويورد الكاتب الشاعر بعد سطور قطعة من الشعر يقول في أولها:

---

(١) من وزراء الدولة العامرية وكتّابها. انظر ترجمة له في الذخيرة ٤/٤٦، وجذوة المقتبس ٢٨٠ برقم ٦٢٤).

(٢) البديع في وصف الربيع: ٨٠

(٣) البديع: ١٠٢ - ١٠٣

حَـدقُ الحسـان تُقِـرّ لي وتغـارُ وتضـلُّ في صفـة النُّهـى وتَحـارُ
طلعت على قُضبي عيـون كمـائمي مثـل العيـون تحفُّهـا الأشـفارُ
وأخـصُّ شـيءٍ بـي إذا شـبَّهتني درر تنطّـق سـلكَها دينـارُ
أهـدتْ لـهُ قضـب الزمـرّد سـاقه وحبـاه أنْفَـسَ عطـره العطّـارُ
أنـا نرجسٌ حقّـاً بهـرتُ عقولهـم ببديـع تركيـبي فقيـل بَهـارُ

إلى أن يقول الكاتب الشاعر ذاكراً صفة الجود عند المنصور ملمّحاً بقصده من طلب العَطاء بصورة غير مباشرة:

((وأقـلُّ جـودِ العـامريّ محمّـدٍ أَلْـفٌ حكـتْ حَدَقي وتلـك نُضَـارُ
عشـرٌ تُعَـدُّ مـن المئـين لأَنْمُـلٍ عشـرٍ يصرّفهـا وهُـنَّ بحـارُ!))

فالنصّ هو رسالة، قطعة نثريّة موصولة بقطعة شعرية. وقـد أضـاف الكـاتب أبيات الشعر استكمالاً لقضيّته في الرسالة.

ـ والرّسـالة واحـدة في (الزهريّـات) الـتي فشـا نَهْجُهـا، وكَثُرَ اسـتخدامها لأغـراض شـتى. والكـاتب الشـاعر الجزيـري أراد أن يؤكـد الصّلـة بينـه وبـين الحاجب المنصـور، فاستفاد مـن نرجسـة مبكّـرة ظهـرت زهرتهـا في كـانون الأول (ديسمبر) في عزّ البَرْد، وجعلها جديرة بأن تكون للمَمْدُوح، وأن تمثل بين يديه.

ـ وأنطق الكاتب النّرجسة على سـبيل الاسـتعارة فتحدّثـت عـن خصائصهـا الزهريّة شَكْلاً وعطراً، وألواناً زاهية.

ـ وأجرى العتاب على لسان الزّهرة المذكورة حين غادر المنصور ديارها وآثر بوجوده غَيْرَها.

ـ وجعل فكرة المعاتبة وسيلة للانتقال مـن النثر إلى الشـعر، ولتكـون الزهـرة نثرها وشعرها هدية للمَنْصُور عسى أن تحظى هي، ويحظى الكاتب ـ بالمناسبة ـ برضى المَنْصُور، وأريحيّته أيضاً.

ـ وقد استفاد الكاتب من اسم النّرجس كما يقوله الأندلسيون وهو البَهار، وحرّك المقاصد المعنوية في إطار المقاصد اللغوية بشيء حسن من المهارة وحُسن التصرُّف، فالنّرجس لم يُسَمَّ بهاراً إلا لأنه يغلب ويَبْهَر!

٤ ـ وكتب ابنُ أبي الخصال[١] إلى أحد القضاة من أصحابه، وكان قد نُحّي عن خطة القضاء ثم أُعيد إليها[٢] ،

((... وما زالت خُطّة القضاء تضيق عليها بعدك سعَةُ الفَضاء، وتقلّب وجْهَها في السَّماء لِتُوَلّى قِبْلَةً تَرضاها، وتُحلّى عصمةَ ماجدٍ يَجْمَعُ فوضاها؛ وتنوحُ على ذلك النّصاب الرفيع أحَدّ نَوْح، وتبكي ممّن تقلّدها بكاءَ الخَزّ من رَوْح، وتستوحش ـ وحُقّ لها ـ من جُفاةٍ أَجلاف، وتنكر بَعْدَ محاسنِ الجياد مساوئ أظْلاف، وتتلفّتُ نحوك تلفُّت الصمة إلى الحَيّ، وتندم ندامة من ترك الرأيَ بالريّ، وتحنُّ إليك حنين من طرحه اغترابُه، وبان عنه تُرابه، وفارقه أُلاّفه وأترابُه...)).

فهو يُثني على صاحبه، ويذكر مكانته، ويرفع شأنه عن طريق تصوير شَوْقِ منصب القضاء إليه، وتوق تلك الخطة نحوه.. واعتمد الكاتب على أسلوب السَّجع، والتزم زيادة على ذلك لزوم مالا يلزم، وأكثر الكاتب من الإشارات التاريخية واللمحات الأدبية.

ـ وقول الكاتب: ((... بكاء الخزّ من روح)) فيه إشارة إلى قول حميدة بنت النعمان بن بشير الأنصاري في زوجها روح بن زنباع:

بكى الخزُّ من روحٍ وأنكر جلدَهُ وعجّت عجيجاً من جذام المطارِفُ

ـ وقوله: ((تلفّت الصمّة إلى الحيّ)) فيه إشارة إلى شعر للصِّمَّة القشيري أحد شعراء الغزل العذري في العصر الأموي قال فيه[٣] :

---

(١) له ترجمة في الفصل الرابع من هذا الكتاب، وانظر: الرسائل الديوانية.

(٢) رسائل الكاتب الفقيه: ٣٩٨ ـ ٣٩٩

(٣) الحماسة بشرح المرزوقي (رقم ٤٥٤، ص: ١٢١٨).

تلفَّتُّ نحو الحيِّ حتى وجَدْتُني وَجِعْتُ من الإصغاءِ لِيْتاً وأَخْدعا!

وتقترب خَصائص الرسائل الإخوانية من خصائص الرسائل الدّيوانيّة، غير أن الدّيوانية أَطول، وتُلتزم فيها عادةً أصول الكتابة، ورسوم المخاطبات الملوكية والسُّلطانيّة...

الرسائل الأدبيّة

كَثُرت الرَّسائل الأدبيّة في التراث الأندلسي، وتعدّدت أغراضُها؛ وأظهر الأَديب الأندلسي براعةً في تناول موضوعاته، وتلوينها، وصدرت رسائل أدبيّة تعالج جوانب ذات علاقة بالخصوصية الأندلسية مثل الرسائل التي: ((تتّخذ الجهاد والاستنفار للحرب، وتصوير معاركها العنيفة موضوعات لها))[1]، والرسائل التي تقال على لسان الأزهار والأنوار وما يخص الطبيعة، والرسائل التي يعتمد كاتبها فيها على عُنصر الفكاهة والدُّعابة.

ونذكر من أسماء الكتّاب المشهورين: ابن شُهَيد ورسالة (التّوابع والزّوابع) وابن زيدون و (الرّسالة الهزليّة) وأبا الحسين سراج بن عبد الملك، وابن أبي الخصال في الرسائل الزرزورية، وابن خفاجة في وصف الطبيعة، وابن حزم في (طوق الحمامة) والكلام على الحبّ والمحبّين.

١ ـ ولمحمد بن مَسْعُود رسائل وقصائد هزليّة:

أورد ابن بسام منها نتفاً تدل على اكتمال شخصية الرجل وأُسلوبه الهزليّ، ولو بقيت آثاره لكان له ذِكْرٌ خاصٌّ ومكانة مهمّة في الأدب: شعره ونثره.

وله رسالة اقتطف منها في الذخيرة مقتطفات بعث بها إلى ابنٍ له كان قد توجَّه إلى غرب الأندلس، ثم بلغه عنه انهماكُه مع أهل البَطالة وتضييعه ما يلزم من الرَّزانة؛ وجعل الكاتب رسالته الهزلية نوعاً من التَّوبيخ التهكّمي. ومما جاء فيها:

---

(١) الأندلس. د. ضيف: ٤٤٧

((.. فأخبرني يا تاجر البحرين، وسمسار العراقين، ودليل الحجازين، وخِرّيت الفلاتين، وابن عظيم القريتين: أتعسْ بِكَ من خرّاجٍ ولاّج، ماضٍ على السُّرى والإدلاج، جريءٍ على الليل الدّاج، كالسّراج الوهّاج، والعارض الثّجاج، وصِفْ لي موقع الشمس في العين الحمئة، وكيف كان مَخْلَصُكَ من تلك البلاد الوبئة، وكيف رأيت مدينة يونس، وجَنّة إرم، والبركان المؤنس، وجزيرة الغنم، والزاوية، وصخرة العُقاب، وبئر الهاوية...)).

وفي جزء آخر منها؛ وفيه تعريض وتهكُّم:

((صحَّ عندي أن العسل[1] في تلك الجهة ممكن غير غال، ومنحطٌّ غير عال، فتناول إقامتَهُ وتركيبَهُ، وأتْقِنْ صناعته وتربيبه، لقد نسيتُ يا بُنَيّ أن أبعث إليك بنسخة في تربيب العسل المشروب، مطابقة للمرغوب، التقطتُها مغتنماً عن (فلان) اليهودي كان انتخبها للمنصور بن أبي عامر وأصحابه كعيسى بن سعيد وعبد الله بن مسلمة. ولستَ ـ بحمد الله ـ دونهم، فنجابَتُك قد ظهرت والدّرةُ قد نَدَرَت؛ ومَخايلُ السعود طالعة، وآيات الفلاح ساطعة، كما سمّي اللديغُ سليماً، وسُمِع عن طهر الإوَزّ قديماً...)).

٢ ـ الزرزوريّات:

رسائل (الزرزوريّات) فيها من الطرافة، والتنويع ما يقتضي الإشارة إليها، ولو كانت الإشارة سريعة.

أوّل ما وردت عبارة الزّرزور كانت في رسالة كتبها أبو الحسين بن سراج إلى أحد رجال عصره يشفع فيها لرجل يعرف بالزّريزر (مصغّر زرزور). وقد استثار الكاتب اهتمام المرسل إليه، فاستفاد من لقب الرّجل الذي يتوسّط من أجله (وهو الزّريزير) ورجع إلى الطائر المعروف باسم الزّرزور، وأضفى على

---

(١) يلمّح الكاتب إلى الاستفادة من العسل في صنع بعض أنواع الشراب.

الرسالة نوعاً من الدُّعابة الطريفة، فقال في دَرْج الرّسالة إن كتابه هذا ـ أي رسالته ـ يحمله زرزور[١] أو:

((يصل به ـ وصل الله علوّك، وكتب عدوّك شخص من الطيور يعرف بالزّريزير، أقام لدينا أيام التحسير[٢]، وزمان التبلّغ بالشّكير[٣]. فلما وافى ريشه، ونَبَتْ بأفراخِه عشوشه أزمعَ عنا قطُوعا، وعلى ذلك الأفق اللون تدلّياً ووقوعاً، رجاء أن يلقى في تلك البساتين مَعْمَرا، وعلى تلك الغصون حَبّاً وثمرا)).

فقد أعجب ابن السّراج أن يجعل الرجل الذي يحمل رسالته ((زرزوراً)) ومن هنا استطرد الحديث إلى ما يُشاكل الطائر من ريش وفرخ وعش وتحسير...

وفتحت هذه الرّسالة باب الكتابة في هذا الموضوع بطرافتها، وأُسلوب كاتبها، والجِدَّةَ الجديدة فيها، فممّن كتب في هذا الموضوع أبو القاسم بن الجَدّ، ومن ذلك قوله في رساة:

((لئن سُمّي زُرَيْزير، لقد صغَّر للتّكبير... ومعلومٌ أنَّ هذا الطائر الصافر يفوقُ جميع الطيور في فهم التلقين، وحُسن اليقين؛ فإذا علم الكلام لهج بالتسبيح، ولم ينطق لسانه بالقبيح، ثم تراه يقوم كالنصيح، ويدعو إلى الخير بلسان فصيح فَمَن أَحَبّ الاتّعاظ لقي منه قَسّ إيادٍ بعكاظ، أو مال إلى سماع البسيط والشديد، وجدّ عنده نخب الموصلي للرَّشيد...)).

وشارك ابنُ أَبي الخِصال[٤] في الكتابة عن الزّرْزور، ونقل الموضوع من الرسالة إلى الخُطبة، وتَحوَّل به فأَصبح المتحدّث فيه هو الزّرزور نفسه[٥] وليس شخصاً يحتاج إلى شفاعة وتوصية، وإذا هذا المتحدّث حين يكلّم الناس عن توبته أو يستثيرهم إلى السخاء من أجله وينال نقودهم عن طريق الوَعْظ صورة لبطل المقامة..

---

(١) وُصِفَ الزّرزور بأنه عصفور كالقُبَّر، ولكنه أملس الرّأس. ويقال في اسمه: الزَّرْزَرُ، والزُّرْزور.

(٢) يقال حَسّر الطائر أي خرج من ريشه العتيق إلى ريشه الجديد.

(٣) الشّكير: أول النبت على أثر النبت الهائج المغبرّ، وما ينبت حول الشجرة من أصلها.

(٤) لابن أبي الخصال ترجمة في هذا الكتاب، وانظر: الرّسائل الديوانيّة، والمقامات.

(٥) انظر: تاريخ الأدب الأندلسي ـ الدكتور إحسان عباس ٢/٢٩٩

٣ ـ الرسائل النبوية:

كَثُر من أُدباء الأندلس: شعرائهم وكتّابهم مَـدْحُ رسـول الله ﷺ، والتشـوق إلى زيارة المدينة والصلاة في مسجدها النبوي وزيارة رسول الله ﷺ والاكتحـال برؤية الروضة الشريفة والدّيار التي سكنها أو مَرَّ بها أو كانت له فيها ذكريـات حفظها المُسلمون جيلاً عن جيل.

ومن نشاطهم الأدبي في هذا المجال رسائل سطَّروها، وحَمَّلوهـا إلى الحجّـاج القاصدين إلى الديار المكرّمة معنونـة باسـم النبيّ المعظـم المكـرّم، وكـثرت هـذه الرسائل من أواخر عصر الطوائف وهلم جراً إلى آخر عصور الأَندلس العربيّة.

١ ـ فالأندلس بعيدةٌ عن الحرمين الشريفين: فالاستطاعة ـ بالمقياس الشرعي ـ أقلّ وجوداً من هذا الجانب. ومع البعد عوامل أُخرى معتبرة عند الفقهاء.

٢ ـ وكان خروج ركب الحاج من كـل مدينـة أو قريـة يثير في النفـوس المعـاني الإسلامية مع الوجد والشـوق واللهفـة ﴿واجْعَـلْ أَفْئِـدَةً مِـنَ النَّـاسِ تَهْـوِي إِلَيْهِـمْ﴾ [إبراهيم: ١٤/٣٧].

٣ ـ وأثّرت الحوادث السياسية (السلبية) والعسكرية في هذا الجانب من الفتن والكوارث، أو من هجمة العدوّ من الدّول الشمالية التي كثيراً مـا تحـالفت مـع أوربة في حرب صليبية قاسية: كان العدو ينتهك المعايير الدّولية والإنسانية.

---

(١) الدّمنة: آثار الدارِ، والناسِ. وتستخدم الكلمة لمعنى القبر.

(٢) الفتيت: وزن فعيل من: فتَّ الشيءَ إذا كسره ودقّه.

(٣) الكريت من السنين والشهور والأيّام: التامّ.

٤ ـ وكان الذين يؤدّون فريضة الحج مرّة يتوقون إلى العودة ثانية إلى تلك الدّيار، وكانت قلوبُهم تقفزُ من الشَّوق، وكانت ألسنتهم تنطلق ـ حين القدرة على ذلك ـ فتسَطّر تلك المشاعر شعراً أو نثراً فنّياً جميلاً. وقد خرج ابن جبير[١] بعد أداء الفريضة في رحلتين أُخريين.

٥ ـ ورافقت هذه الظّاهرة الإسلامية ـ الأدبية أيضاً نشاط الأندلسيين في كتابة السيرة النبوية وما يتفرع عنها من قضايا كثيرة جدّاً من خصائص النبي، ﷺ، وشمائله وخصاله ودلائل نبوّته... وقد أسهم الموحّدون في هذا الجانب فشجّعوا عليه؛ وأشهر كتاب في الخصائص والشمائل صدر عن هذه المدّة، وهو كتاب (الشفا في التعريف بحقوق المصطفى) للقاضي عياض، رحمه الله[٢].

هذه رسالة كتبها أبو القاسم بن الجَدّ (ت: ٥١٥ هـ) على لسان صديق له كان قد حجّ وزار، وتاقت نفسه إلى العودة:

((ولما صدرتُ يا رسول الله عن زيارتك الكريمة، وقد ملأتْ هيبتُكَ ومحبَّتُكَ أرجاءَ فكري، وفضاءَ صدري، وغَشِيَني من نور برهانك ما بهر لبّي، وعمر قلبي، لحقني من الأسَفِ لبعد مَزارِكَ، والحنين إلى شَرَفِ جوارك، ما أودع جوانحي التهاباً، وأوْسَعَ جوارحي اضطراباً، وأشعر أملي عَوْداً إلى محلّكَ المعظَّم وإياباً، وكيف لا أحِنّ إلى قربك، وأتهالكُ في حبِّك، وأعفّر خدِّي في مقدَّسِ تُرْبك، وبك اقتديت فاهتديت، ولولاك ما صُمتُ ولا صلّيت، ولا سعيت ولا طفت، بل كيف لا يتحرّك نحوك نزاعي، ويتأكّد انقطاعي، وبك استشفاعي، وإليك مفزعي يوم الدّاعي. فلا تنسَ لي يا رسول الله عياذي بك ولياذي، وإسراعي إلى زيارتك وإغذاذي، واذكرني في اليوم العظيم المشهود، عند حوضك المورود، وظلّكَ الممدود، ومقامك المحمود))[٣].

---

(١) تحدّثنا عنه في (أدب الرحلة) من هذا الكتاب.

(٢) انظر بحثنا عن (السيرة النبويّة في التراث الأندلسي) في كتاب (أندلسيات شامية) صدر عن دار الفكر بدمشق.

(٣) النص في الذخيرة ٢/٢٨٦ ـ ٢٨٧

واخترنا رسالة نبويّة لابن أبي الخصال تجدها في ترجمته من هذا الكتاب في الباب الرابع.

٤ ـ رسائل ابن بُرد الأصْغر:

عُرِف من آل بُرد في الأدب والكتابة والخدمة والسلطانية اثنان هما أبو حفص أحمد بن برد (الأكبر) وحفيده أبو حفص أحمد (الذي عرف بابن بُرد الأَصغر). وكان معاصراً لابن زيدون، وهو الذي خاطبه بقصيدته[1]:

ما على ظنّي باسُ   يجرحُ الدّهرُ وياسو

وهو أحمد بن محمد بن أحمد بن بُرْد[2] (توفّي نحو سنة ٤٥٠ هـ) تعرَّض أهله مدّة الفتنة بقرطبة إلى اضطهاد ابن حَمُّود المتغلب عليها، فتنقل في البلاد. واستقر كما يبدو بعد تطواف في المَرِيّة عند بني صُمادح. وآخر أَخباره أنّه كتب لمعن بن صمادح ووزر له أيضاً، ودام حكم معن هذا ما بين (٤٣٢ و ٤٣٣) وهو مفقود. ولا يُدْرى إن كان ابنُ برد أدرك عهد المعتصم بن معن بن صمادح الذي خلف أباه. فإن تاريخ وفاته مجهول.

ـ اشتهرت رسائل ابن برد الأصغر، السياسية الإدارية والرسائل الأدبية، والرسائل الإخوانيّة. وفي رسائله الأدبية: رسالة عقدها للمفاضلة بين السّيف والقلم، ورسالة النخلة، ورسالة أُهب الشاء.

ـ وقد كتب ابن برد رسالته في السيف والقلم إلى الموفّق أبي الجيش مجاهد العامري صاحب دانية والجزائر الشرقية (تسمّى الآن جزر الباليار).

تدور الرسالة حول منافسة، ومفاخرة بين السيف والقلم، واسترسل الكاتب مع كلٍّ منهما: يضع من عباراته، وحُججه على لسان القلم تارة، وعلى لسان

---

(١) أوردنا القصيدة في هذا الكتاب.

(٢) ترجم له في الذخيرة ١/١: ٤٨٦، وجذوة المقتبس (المصرية) ١١٥، وبغية الملتمس ١٥٣، ومعجم الأدباء ٤١/٥، والوافي بالوفيات ٣٥/٧، والمطرب ١٢٧، والمغرب ٨٦/١، ونفح الطيب ٥٤٥/٥ .

السَّيف تارة أُخرى. ولّما كثر تقديم الحجج، ودحض أقوال الطرف الآخر، ولم يتقاعس أي منهما عن المبادرة إلى الإجابة وتجديد الفخر بادرا معاً إلى التفاهم والمصالحة قائلين: إن من القبيح أن تتشتت أهواؤنا، وتتفرَّق آراؤنا، وقد جمعنا الله في المألف الكريم...

- وهي رسالة أَظهر فيها الكاتب براعته في فنّ الترسّل؛ واستعرض معارفه اللغويّة، ومقدرته البيانية، وساق فيها الحجج على لسان كل من السيف والقلم باستنباطٍ دقيق، وخيال محلّق، واستطرادٍ طَلْق. ويشعرُ القارئُ أنَّ الكاتب يَغْرف من بَحْر، ويتصرّف بالكلام عن مقدرة، ويطيلُ الحديثَ عن وَفْرة.

فالرّسالة - شأن رسائله الأُخرى - تعلّل المكانة الأدبية العالية التي وصل إليها ابن بُرد الأصغر عند أمراء الطوائف، وعند أقرانه من كتّاب العصر.

وهذه مقتطفات من رسالة في السيف والقلم[١]:

((... أمّا بعد حمد الله بجميع محامده وآلائه، والصلاة على خاتم أنبيائه، فإن التسابقَ من جوادين سَبقا في حلبة، وقضيبين نُسِقا في تُربة، والتحاسدَ من نجمين أنارا في أُفق، وسهمين صارا على نَسق؛ والتفاخرَ من زهرتين تفتّحتا من كِمامة، وبارقتين توضّحتا من غمامة لأحمدُ وجوه الحسد - وإن كان مذموماً مع الأبد[٢] -، وربّما امتدّ أحدُ الجوادَيْن بخطوة، أو خُصَّ أحد القضيبين بربوة، أو كان أحد السهمين أنفذَ مصيرا، أو راح أحد النجمين أضوأَ تنويرا، أو غدَتْ إحدى الزهرتين أندى غضارة، أو أمست إحدى البارقتين أسنى إنارة. فالمقصّر يرتقبُ تقدّما، وتقارب الحالتين في المجانسة يشبّ نار المنافسة، وإن حال بينهما قَدْحُ النُّقّاد، وقُبْحُ تحاسد الأضداد.

وإن السَّيف والقلم لّما كانا مصباحَيْن يهديان إلى القَصْد من باتَ يسري إلى المجد وسُلّمين يلحقان بالكواكب من ارتقى لساميات المراتب، وطريقين يشرعان

---

(١) الذخيرة ١/٥٢٣. وكتب بها إلى الموفّق أبي الجيش مجاهد.

(٢) أي وإن كان الحسَدُ مذموماً...

نهج الشرف لمن تقرّى إليه، ويجمعان شمل الفخر لمن تأشّب عليه، ووسيلتين يُرشِفان العُلا فم عاشقها، ويبسطان في وصال المنى يدَ وامقها، وشفيعين لا يؤخّر تشفيعُهما، ومُجَمّعَيْن لا يفرّق تجميعهما، جرّرا أذيالَ الخيلاء تَفاخُرا، وأشَمّا بأنف الكبرياء تنافرا، وادّعى كلُّ واحدٍ منهما أنَّ الفَوْزَ لِقدْحِه، وأنَّ الوَرْيَ لِقَدْحِه، وأنَّ الدرّ من أصدافه، وأنَّ البِكر من زفافه، وأنَّ البناء من تشييده، وأنَّ الملاء من تعضيده، وأنَّ كباء الثناء موقوف على مَجامِره، وأنَّ خطيب الفخر محبوسٌ على منابره، وأنَّ حلل المآثر من نسيجه، وأنَّ أفراد المَفاخر من تزويجه.

وحين كشف الجدالُ قناعه، ومَدَّ الخصامُ ذراعه، وهزَّ الإباءُ من عِطْفه، وأشمَّ الأنفُ من أنفه، قاما يتباريان في المقال ويتساجلان في الخِصال، ويصفُ كلّ واحدٍ منهما جلال نفسه، ويذكرُ فَضْلَ ما اجْتُنِيَ من غَرْسِه، ويَبْأى[١] بمنقبةٍ نافرت السُّها[٢]، ومرتبةٍ رَيِّضةٍ خيّسها[٣]، ورياسة من ذوائب الجَوْزاء[٤] صادها، ونباهةٍ في صهوةِ العيّوقِ[٥] أفادها)).

وتستمر الرسالة بعد ذلك طويلاً ليقدم كل من القلم والسيف على التناوب حججه، وشواهده على السبق والتفوّق. وتنتهي الرسالة بقطعة شعرية يصل منها الكاتب إلى غايته العملية وغرضه الشخصي، وهو مدح أبي الجيش مجاهد، والثناء عليه بحيازته البراعة في السيف والقلم معاً. ويسوّي الكاتب بين السيف والقلم حسماً للمفاخرة التي طالت في رسالته والتي تردّدت في آثار الأدباء والكتّاب منذ زمن بعيد في صدر الدولة العباسيّة. وفي ذلك الشعر ـ ونورد منه هنا على سبيل الاستئناس ـ :

---

(١) يبأى من البأو: وهو الفخر والتكبُّر.

(٢) السُّها نجم شديد البُعد في السّماء، يضرب به المثل في العلو والبُعد.

(٣) خيّس: ذلّل، وطوّع.

(٤) الجوزاء: نجم، وبُرج من الأبراج الاثني عشر.

(٥) العيّوق: نجم أحمر مضيء في طرف المجرّة الأيمن، يتلو الثريّا. ويضرب به المثل في البُعد.

قد آنَ للسَّيف ألاّ يَفْضُل القلَما   مُذ سُخّرا لفتىً حازَ العُلاَ بهِما
إن يُجتنى المجدُ غضّاً من كمائمه   فإنّما يُجتنى من بعض غرسهما
ما جاريا أملاً فوافيا أمداً   إلا وكانت خصال السَّبْق بينهما

- واشتهر من رسائل ابن بُرْد أيضاً رسالته في النّخلة، ورسالة أُهْب الشّاء، فَضّل فيها أُهْبَ الشّاء على ما يُفْتَرشُ من الوطاء.

٥ - ابن شُهَيد[١] ورسالة (التوابع والزوابع):

١ - في شعراء الأَندلس في عصر الخلافة (في مدّة تسلط الدولة العامريّة) أبو المطرّف عبد الرحمن بن أَبي الفهد الأَشجعي؛ أصلُه من إلبيرة، وسكن مدينة قُرطبة وقد وصفه ابن شُهَيد - وهو أَشجعي أيضاً - فقال فيه: كان من أشعر من أَنبتته الأندلس ووطئ ترابها بعد أبي المخشي أولاً وابن دراج آخِراً؛ إلى أن قال: وهو غزير المادّة، واسع الصدر؛ حتى إنه لم يكن يبقي شاعراً جاهلياً ولا إسلامياً إلا عارضه وناقضه، وفي كل ذلك تراه ((مثل الجواد إذا استولى على الأمد))، وقال أبو عامر ابن شُهَيد: إن أبا المطرّف عمل بحضوره أربعين بيتاً على البديهة مهملة الحروف (ليس فيها حرف منقوط) أولها (حلمك ما حدّ حدّهُ أَحَدُ)، وإنه نقض كل شعر قاله يمانيّ في مفاخرة المضريّة[٢]

وأبو المطرّف هذا الذي يمتُّ بقرابة إلى أَبي عامر بن شُهَيد صاحب رسالة (التوابع والزوابع)، المسمّاة أَيضاً شجرة الفكاهة، قد يكون هو المثال أو النموذج الذي أعجب أبا عامر، وفتح له الباب لمعارضة عدد من الشعراء والكتّاب ذوي الشأن والمكانة في تاريخ الأدب العربي في الجاهلية والإسلام.

---

(١) ترجم له الحميدي في جذوة المقتبس، والضبيّ في بغية الملتمس ٣٥٦ - ٣٥٧

(٢) في ترجمة أبي المطرّف أنه خرج عن الأندلس في العشر الأخير من القرن الرابع الهجري إلى المشرق ولم يعرف له خبر بعد ذلك.

٢ ـ وابن شُهَيد[١] هو أبو عامر أحمد بن عبد الملك بن شُهَيد الأشجعي، القرطبي (٣٨٢ ـ ٤٢٦ هـ)، وكان أبوه أديباً، وزيراً من المقرّبين إلى الدولة العامرية. نال ابن شُهَيد قسطاً وافراً من معارف زمانه، وبرع في الكتابة والشعر. ومدح بشعره عدداً من الخلفاء وذوي الشأن في مدة الفتنة التي ضربت بلاد الأندلس (٤٠٠ ـ ٤٢٢ هـ)، ووزر لعبد الرحمن المستظهر الأموي الذي لم يطل عهده أكثر من شهرين سنة (٤١٤ هـ).

كان ابن شُهَيد يعاني من ضيق التنفُّس (لعلّهُ الرّبو)، وألحَّ عليه المرض حتى توفي عن سنٍّ مبكرة سنة (٤٢٦ هـ) بعد أن قضت الدولة الأموية نحبها أيضاً.

والآثار الأدبيّة الباقية من تراث ابن شُهَيد تدلُّ على شخصية أَديب، كاتب، شاعر، ناقد، متعدّد المواهب[٢].

والتّوابع والزّوابع هذه:

رسالةٌ خاطب بها صديقاً له اسمه أبو بكر بن حزم، وفيها رحلةٌ خيالية إلى عالم الجنّ. وعَناهُ من الجنّ شياطينُ الشعراء ومُلهمو الأدباء. وسمّى تابعه أو شيطان شعره: زهير بن نُمير، وجعله من (أشجع) غير أن ابن شُهَيد أشجعيّ الإنس وذاكَ أشجعيُّ الجنّ!! ولقي ابنُ شُهَيد مع صاحبه شياطين بعض الأموات كما لقي شياطين بعض الأحياء (من الأدباء) ولقي من شياطين الكتّاب تابِعِيْ: عبد الحميد الكاتب، وابن المقفع، والجاحظ، وبديع الزّمان.

والرسالة بحسب ما رواها ابن بسّام أو اقتبَس منها في ثلاثة أقسام متوالية:

---

(١) ترجم له في جذوة المقتبس: ١٢٤ (الدار المصريّة)، وبغية الملتمس ١٧٧، ومطمح الأنفس ١٦، والذخيرة ١٩١/١، والمُغرب ٧٧/١، والخريدة (قسم المغرب والأندلس) ٥٥٥، والمطرب: ١٥٨.

(٢) جُمع شعر ابن شُهَيد وطبع في بيروت (بعناية شارل بلاّ) وفي مصر (صنعه يعقوب زكي) ـ واستخرج الباقي من (التّوابع والزّوابع) من الذّخيرة، وطبع في كتيب مفرد في بيروت، عن أصل الذخيرة.

قسم أول: لقي فيه شياطين (مُلهمي) الشعراء والكتّاب، وحاكاهم، وأظهر مقدرته على مجاراة أساليبهم، وأظهر شُفوفه وتميُّزه على أهل بلده (الأندلس).

وقسم ثان: فيه ملاحظات أدبية ونقدية، تدور حول مشكلة أخذ المعنى الواحد وتداوله بين الشّعراء (قضية السرقات الأدبية).

وقسم ثالث: فيه مفاضلة بين شعرين لحيوانين من عُشاق الجنّ (حمار وبغل)، وفيه رسم لصورة إوزّة سَمّاها (العاقلة). وغَرضُه من المشهدين التندّر بأشخاصٍ لم يذكرهم في رسالته بأسمائهم.

- وجعل ابن شُهَيد رسالته مَعْرِضاً لنماذج من شعره ونثره، ومجالاً لإظهار تقدُّمه وتفوُّقه على أقرانه (في الأندلس)، ومعارضته المتكافئة لعدد من شعراء المشرق وكتّابهم المعروفين المتقدّمين.

وهذه قطعة من التوابع والزوابع تبيّن نهجه في الرسالة وتكشف عن طرف من أسلوبه الغني[١] :

((... قال لي زُهير بن نمير (وهو تابعه وشيطانُ شعره): ومَن تُريد بعد؟ قلت له: خاتمة القوم، صاحب أبي الطيب! فقال: اشدُدْ له حَيازيمك، وعطّر له نسيمك، وانثر عليه نجومك.

وأمال عنان الأدهمِ (فرسه) إلى طَريقٍ، فجعل يركضُ بنا، وزهير يتأمَّلُ آثارَ فرسٍ لَمحناها هناك. فقلتُ له: ما تتبُّعك لهذه الآثار؟ قال: هي آثارُ فرس حارثة ابنِ المغلّس، صاحب أبي الطيب، وهو صاحب قنص. فلم يزل يَتقرّاها (يتبع آثارها) حتى دَفعنا إلى فارسٍ على فرسٍ بيضاء كأنه قضيبٌ على كثيب، وبيده قناةٌ قد أسندها إلى عنقه، وعلى رأسه عمامةٌ حمراء، قد أرخى لها عَذبةً صَفراء[٢] . فحيّاهُ زهير، فأحسنَ الردَّ ناظراً من مُقلة شَوساء، قد مُلئت تيهاً

---

(١) الذخيرة ١/٢٦٥

(٢) العذبة: طرف الشيء، ومن ذلك عذَبةُ السّوط، وعَذبةُ العمامة.

وعُجباً. فعرَّفه زهير قَصدي وألقى إليه رَغْبتي، فقال: بلغني أنه يَتناول! قلت: للضَّرورة الدّافعة، وإلاّ فالقريحةُ غير صادعة، والشّفرةُ غيرُ قاطعة. قال: فأنشدني، وأكبرتهُ أن أستنشده، فأنشدته قصيدتي التي أوَّلُها:

(أبرقٌ بَدا أمْ لَمْعُ أبيضَ قاصِلِ)

حتى انتهيتُ إلى قولي:

تردَّدَ فيها البرقُ حتى حَسبتهُ ... يُشير إلى نجمِ العُلا بالأناملِ

رُبيَّ نسجت أيدي الغَمام للبسها ... غلائلَ صُفْراً فوقَ بيضِ غلائلِ

سهرتُ بها أرعى النجومَ وأنجماً ... طوالعَ للرّاعِينَ غير أوافلِ

وقد فغرتْ فاهاً بها كلُّ زهرةٍ ... إلى كلِّ ضَرْعٍ للغَمَامةِ حافلِ

...إلخ

فلما انتهيت، قال: أنشدني أشدَّ من هذا، فأنشدتهُ قصيدتي:

(هاتيكَ دارُهُم فقِفنّ بمعانِها)

فلما انتهيت، قال لزهير: إن امتدَّ به طلقُ العمر، فلا بد أن ينفث بِدُرّ، وما أراه إلا سيختصر بين قريحة كالجمر، وهمة تضع أخمصه على مفرق البدر. فقلت: هلا وضعته على صلعة النسر؟ فاستضحك إليَّ وقال: اذهبْ! فقد أجزتك بهذه النكتة. فقبّلت رأسه وانصرفنا!))

٦ ـ طوق الحمامة لابن حزم:

١ ـ وابن حزم[٢] يعرف أحياناً بابن حزم الكبير تمييزاً له عن عدد من العلماء والأدباء انتسبوا هذه النّسبة. وهو أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حَزْم

القرطبي. ولد سنة (٣٨٣ أو ٣٨٤ هـ) في بيت جاه وثروة وترف وسلطان وعلم. وزر أبوه للمنصور محمد بن أبي عامر حاجب الدولة الأموية المتغلّب عليها. ونال آل حزم ملاحقة وحيف حين استردّ هشام المؤيد الأموي بعض قوّته، وحين حكم قرطبة علي بن حَمُّود (الحسني). وعُيِّن وزيراً لمدة قصيرة ـ مع صديقه ابن شُهَيد ـ في مدّة صديقه المستظهر الأموي، ولم تمتدّ هذه الوزارة أكثر من شهر وبعض شهر بسبب مقتل المستظهر. وسُجن ابن حزم الخليفة الجديد المستكفي ثم أطلق سراحه سريعاً.

ترك ابن حزم العمل السياسي نهائياً والتفت إلى العلم يلقيه على الطّلبة والأشياع الذين يتابعونه، ويؤلّف كتبه وينشرها في النّاس.

وتنقل في أكثر من مدينة في الأندلس نظراً لملاحقة السلطة له أحياناً أو تحريض العلماء في زمانه ضدّه، لآرائه التي قد لا تُعجبهم، أو اجتهاداته التي يخالفهم فيها.

وقد اختار ابن حزم ـ بعدَ دراسة وتوسُّع ـ المذهب الظاهري. وكُتبه الباقية هي المعتمدة في هذا المَذْهب الذي أسَّسه في بغداد ابن داوود الظاهري.

وابن حزم من أشهر شخصيّات العلم والفكر والثقافة العربية الإسلامية في الأندلس ـ ولابن حزم مؤلّفات كثيرة في علوم شتّى من الفقه، وأصوله؛ وتاريخ الأديان، والأنساب، والتواريخ، والتراجم، والأدب، والشعر.

وبقي من كتبه ما يكفي لجعله من أشهر رجال الفكر والفقه والثقافة العربية عامّة.

٢ ـ اسم الكتاب (طوق الحمامة في الأُلفة والأُلاّف) واشتهر اختصاراً بـ (طوق الحمامة). ألّفه ابن حزم سنة (٤١٨ أو ٤١٩ هـ) بمدينة شاطبة على الشاطئ الشرقي للأندلس، وموضوع الكتاب: دراسة الحبّ العُذري.

والكتاب[١] وإن كان يبدو ـ في ظاهره ـ أدباً خفيفاً يصف مظاهر الحياة الإنسانية في الأُلفة والأُلاّف (أي في الحبّ والمحبّين) فإنه في حقيقته نظرة ثاقبة في أعماق النفس الإنسانية والحياة الاجتماعية. ويجد الدارس في (طوق الحمامة) ملامح كثيرة من شخصية ابن حزم وأحواله، وأخباراً يصح أن تكون جزءاً من ترجمته الذاتية (أو سيرته الذاتية) ولمحات في الحياة تعبّر عن نظرات المؤلف الشخصية.

- أبواب الكتاب ثلاثون، مقسّمة على هذا النحو:

- عشرة أبواب في أُصول الحبّ؛

- واثنا عشر في أعراض الحُبّ، وصفاته: محمودها ومذمومها؛

- وستة أبواب في الآفات الداخلة على الحبّ.

- وخاتمة في بابين: أحدهما عن قُبح المعصية والآخر في فضل التعفُّف.

وإنّما أَضاف هذين البابين ((لكي يقرن الحبّ بروح التديُّن، ويكون كلامه فيه داخلاً في باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر))[٢].

ـ وقد طرّز ابن حزم مواضع كثيرة من الكتاب بنماذج من أشعاره، في قطع ملائمة ـ من حيث معانيها ومقاصدها ـ للباب الذي يكتبه أو لجانب من جوانبه.

ـ واختار في (طوق الحمامة) الأسلوب المرسل الذي يجري هيّناً سلساً دون تكلُّف، ودون سجع.

٣ ـ ومن باب الوفاء، وهو الباب الثاني والعشرون، قوله:

((ومن حميد الغرائز[٣] وكريم الشّيم، وفاضل الأخلاق في الحبّ وغيره: الوفاء. وإنه لمن أقوى الدلائل، وأقوى البراهين على طيب الأصل وشرف

---

(١) تاريخ الأدب العربي د. عمر فروخ ٥٢٦/٤

(٢) تاريخ الأدب الأندلسي د. إحسان عبّاس ٣٤٢/١

(٣) الغرائز جمع الغريزة: الطبيعة.

العُنصر[١] . وهو يتفاضل بالتفاضل اللازم للمخلوقات، وفي ذلك أقول قطعة منها:

أفعال كل امرئٍ تنبي بعنصره والعَيْنُ يُغنيك عن أن تطلب الأثرا[٢]

ومنها:

وهل ترى قطّ دِفْلى أنبتت عنباً أو تَذْخَرُ النَّخْلُ في أوكارها الصّبرا[٣] ؟

وأول مراتب الوفاء أن يفي الإنسان لمن يفي له، وهذا فرض لازم، وحقّ واجب على المحبّ والمحبوب، لا يحول عنه إلا خبيث المحتد، لا خَلاق له، ولا خير عنده...)).

٧ ـ ابنُ زَيْدُون ورسالتاه:

بقي من آثار ابن زيدون النّثرية: رسالتاه المشهورتان عُرفت إحداهما بالرِّسالة الهزلية، والأُخرى بالرسالة الجدِّيّة[٤] .

أمّا الهزلية فأنشأها الكاتب على لسان ولّادة يعبث فيها بابن عَبْدُوس؛ على سبيل التهكُّم به، والسخرية، و (تصفية الحسابات)، كما يقال الآن. والرسالة قطعة أدبيّة معجبة من حيث أسلوبها، وصياغتها وتتابع الأفكار فيها. وظاهر أن ابن زيدون استفاد من رسالة الجاحظ المسماة بـ (التربيع والتدوير) التي أدارها على رجل اسمه محمّد بن عبد الوهّاب.

وقد أحسن ابن زيدون التعبير والتصوير، وبلغ مراده من إثارة السخرية والضحك، والتهكُّم البالغ.

وقد مضى ابن زيدون على شاكلة الجاحظ فأكثر من ذِكر أسماء الرجال[٥] وما يتّصل بهم من التّاريخ والأخبار والأحداث، مع محاولته الواضحة في أن

---

(١) العنصر: الأصل.

(٢) العين هنا من قولنا عين الشيء أي نفسه وحقيقته.

(٣) الدّفلى: شجر مرّ لا يُؤكل (لا يصلح لإنسانٍ ولا حيوان) لمرارته وهو من نباتات الزينة في الشوارع والحدائق.

(٤) الأندلس د. شوقي ضيف: ٤٦٧ .

(٥) شرح ابن نباتة الرسالة الهزلية في كتاب مطبوع بعنوان: (سَرْح العيون في شرح رسالة ابن زيدون) من آخر من طبعها: دار الفكر العربي بالقاهرة بتحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ـ ١٩٦٤ .

يكون لرسالته سماتها الخاصة في طريقة عرضه لأولئك الرجال، وفي إكثاره من ضرب الأمثال، ونثر الأبيات الشعرية، وجلب الأشطار من شعراء آخرين بما يوافق السِّياق والمقصد، حتى صارت الرسالة في حاجة إلى شرح وتعريف بالأعلام والأشعار وبسط للإشارات ومختصرات الأخبار.

وتبدأ الرِّسالة على هذا النَّحو:

((أمّا بعد! أيها المُصَاب بعقله، المورّط بجهله، البيّن سقطه[١]، الفاحش غلطه، العاثر في ذيل اغتراره، الأعمى عن شمس نهاره، السّاقط سقوط الذباب على الشَّراب، المتهافت تهافُتَ الفَراش في الشِّهاب[٢]؛ فإن العُجْبَ[٣] أكذب، ومعرفة المرء نفسه أصْوَب.

وإنّك راسَلْتني مُستهدياً من صِلتي ما صَفِرت[٤] منه أيدي أمثالك... مُرسلاً (فلانة) مُرْتَاده... وإنّها أَعْذرت في السّفارة لك[٥]، وما قصّرَت في النيابة عنك، زاعمةً أنَّ المُروءة لفظٌ أنت معناه، والإنسانيّة اسمٌ أنت جِسْمُه وهَيُولاه[٦]، قاطعةً أنك انفردتَ بالجمال، واستأثرت بالكمال، واستعليت في مراتب الجلال، واستوليت على محاسن الخِلال[٧]، حتّى خيّلت أنَّ يوسف، عليه السلام، حاسَنكَ فغضضتَ منه[٨]، وأن امرأة العزيز رأتْكَ فسَلتْ عنه؛ وأنّ قارون أصابَ بَعْضَ ما كَنَزْتَ، والنَّطِفَ[٩] عثر على فضل ما ركزت، وكسرى حملَ

---

(١) السّقط: الرّديء.

(٢) تهافت النّاس على الشيء: تتابعوا. والشهاب: الشعلة الساطعة من النار.

(٣) العُجب: الكِبر.

(٤) صَفِر: خلا. والصِّلة: المودّة، والتقريب.

(٥) أَعذرت: بلغت العُذر باجتهاده في الأمر.

(٦) الهَيُولى: الصورة المعنوية التي يُصَبّ الجسمُ على مثالها.

(٧) الخلال جمع الخَلّة وهي الصّفة.

(٨) حاسنك أي: نافسكَ في الحُسْن (ليظهر أيّهما أكثر حسناً)، وغَضّ منه: نقص من قدره.

(٩) النَّطِفَ: رجل من تميم أغار على قافلة كانت خارجة من اليمن إلى كسرى فأصاب منها مالاً كثيراً وثروة نفيسة. والرِّكاز: ما دفن في الجاهليّة من كنوز.

غاشِيَتك[١]، وقيصر رعى ماشيتك، والإسكَنْدر قَتَل دارا[٢] في طاعتك! وأَرْدَشِيْر جاهَد مُلوك الطّوائف لخروجهم عن جماعتك[٣]، والضَّحَّاك[٤] استَدْعى مُسالَمتك، وجذيمة الأبرش[٥] تمنّى منادمتك، وشيرين قد نافست بوران فيك[٦]!... ...)).

الرّسالة الجِدّيّة:

كان دخول ابن زيدون السّجن تجربة فاصلة في حياته وفي نظرته إلى النّاس، وتعامله معهم: من كبير وصغير على حَدٍّ سواء.

ولدخول ابن زيدون السّجن قصّة: في وقت واحد، أَو في مُدَّتين متقاربتين جدّاً: وقع الشّاعر الكاتب ذُو المكانة الاجتماعية والسّياسية في ورطتين. الأُولى أَنَّ وكيل أعمال ابن زيدون اعتدى على أرض مملوكة لسيّدةٍ لم تشأ أن تبيع تلك الأَرض فاشتكت للقاضي وكان معروفاً بالشدّة مع ((المَسْؤولين)) وذوي النّفوذ إذا وقَعُوا بين يديه، فأمر بسجن ابن زيدون ولم يقبل أي حلّ آخر.

والثانية: أنَّ ابن جَهْور ـ على رغم مكانة ابن زيدون وسابق خدمته وطاعته ـ شكَّ فيه، وظنَّ أنَّ له يداً في حركة كانت تدبّر ضدّه. فسكت عن دخوله السّجن، ولم يعمل على إخراجه. ولبث فيه خمس مئة يوم كما ذكر ابن زيدون نفسه؛

ومن ها هنا كان التفاتُ الشّاعر في سِجنه إلى أَبي الحزم بن جهور بالشعر، والنثر معاً في محاولةٍ منه لاسترضائه، ودعوة ضارعةٍ لفكِّ قيد السِّجن عنه.

---

(١) الغاشية: غطاء السّرج أو المظلّة.

(٢) الإسكندر المقدوني هزم دارا ملك الفرس، وقتله واحتلّ مملكته.

(٣) أردشير وحَّد أمراء فارس (الذين تفرقوا بعد مقتل دارا) وأسّس دولة جديدة.

(٤) الضَّحّاك رجل قديم كوّن ملكاً وكان طاغية جبّاراً.

(٥) جُذَيمة ملك الحيرة، كان له ندمان فقتلهما فضرب بذلك المثل.

(٦) شيرين زوجة أبرويز بن هرمز أحد ملوك الفُرس. وبوران هي بنت أبرويز، وحصلت على المُلك بعده.

وتنصّل الشاعر في أكثر من قصيدة من ((التُّهم)) و ((الرّيب)). وتصريحُه بالولاء والوفاء يدلُّ على ما رُوِيَ من تغيُّر قلب ابن جهور على ابن زيدون، وتركه في السجن تخلُّصاً منه، وإخفاءً له عن السّاحة السياسيّة، أو تأديباً له (لو أَحْسَنّا الظنّ بابن جَهْور). على أنّ قلوب معظم حكّام دول الطوائف كانت قلوباً جافية قاسية، فأكثرهم لا يصلحون للحكم ولا تليقُ بهم الرّياسة.

- بعث ابن زيدون برسالته إلى أبي الحزم بن جَهْور، وهو في قمة التأثُّر والانفعال والتهاب العاطفة: أسفاً على شدّة العقوبة، وسقوط الوضع الاجتماعي، ونزول مكانته عند الحاكم نفسه وعند الناس!

- وتتألف الرسالة (الجدّية) من جزأين متكاملين: قسم منثور وقسم شعري فيه قصيدة: تتمّ المقصد، وتستنفد الطاقة النفسية المتوهّجة.

- تبدأ الرّسالة بتبيان العلاقة القديمة الوثيقة بين ابن زيدون وابن جَهْوَر: ((يا مولاي وسيّدي الذي ودادي له، واعتمادي عليه، واعتدادي به، وامتدادي منه)).

والدّعاء له في مستهلّ الكلام ترقيقاً له واستمالةً لقلبه: ((ومَنْ أبقاه الله ماضيَ حَدّ العزم، واريَ زند الأمل، ثابت عهد النعمة)).

والإشارة إلى ما أصابه من نكبة السّجن، وتسويغ ما درى له بما تخبّئه المقادير: ((إن سَلَبْتني - أعزّك الله - لباس إنعامك وعطلتني من حَلْي إيناسك، وأظمأتني إلى بَرُودِ إسعافك، ونفضتَ إلى كفّ حياطتك، وغضضت عني طرف حمايتك - بعد أن نظر الأعمى إلى تأميلي لك، وسمع الأصمّ ثنائي عليك، وأحسّ الجَمادُ باستنادي إليك - فلا غَرْوَ، قد يغصّ بالماء شاربُه، ويقتل الدواء المستشفيَ به، ويُؤتى الحذِرُ من مأمنه...)).

والأَمل في نجاح مقصد رسالته هذه: ((هذا العتب محمودٌ عواقِبُه، وهذه النبوة غمرةٌ ثم تنجلي، وهذه النكبة سحابة صيف عن قريب تَقَشّعُ...)).

ويقف ابن زيدون عند جوهر القضيّة من وجهة نظره، وهو براءته ممّا نُسب إليه، وصحّة علاقته ببني جَهْوَر، وتلقّيه ـ على الرغم من ذلك ـ عقاباً لا يستحقّه: ((وأعود فأقول: ما هذا الذنب الذي لم يسَعْه عفوك؟ والجهل الذي لم يأتِ من ورائه حلمك؟)).

ويناقش ابن زيدون أبا الحزم في قضيّته: ((ولا أخلو أن أكون بريئاً فأين العدل؟ أو مُسيئاً فأين الفضل؟:

إن لا يكن ذَنْبٌ فعفوك واسعٌ أو كانَ لي ذنبٌ فعفوُكَ أوسعُ))

وتخرج الرّسالة (الجدّية) كما خرجت الرّسالة (الهزلية) إلى تطويل يخدم قضية الرّسالة، وهو تطويل يستعرض فيه ابن زيدون ثانية معارفه اللغوية والأدبية والفقهية والتاريخيّة وغير ذلك ممّا زخرت به ثقافته الواسعة، ويوظف ذلك كلّه في سياق الرسالة وغرضها؛ فيقول:

((وما أراني إلاّ لو أنّي أُمرت بالسجود لآدم فأَبَيْت واستكبرت، وقال لي نوح: ﴿ارْكَبْ مَعَنا﴾. فقلت: ﴿سَآوي إلى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ المَاءِ﴾، وأَمَرْتُ ببناء الصّرح ﴿لَعَلّي أَطَّلِعُ إلى إلهِ مُوْسى﴾ وعكفْتُ على العجل، واعتديتُ في السّبت، وتعاطيتُ فعقرت، وشربت من ماء النّهر الذي ابتليَ به جنود طالوت، وقُدْتُ الفيل لأبرهة، وعاهدت قريشاً على ما في الصّحيفة...)).

إلى أن يقول بعد تهيئة السامع لقبول فكرة براءته، وحسن تصرُّفه، وسلامة نيّته، وصحّة طويته: ((فكيف ولا ذنب لي إلاّ نميمةٌ أهداها كاشحٌ، ونبأٌ جاء به فاسق، وهم الهمّازون المشّاؤون بنميم، والواشون الذين لا يلبثون أن يَصْدَعوا العصا، والغواة الذين لا يتركون أديماً صحيحاً...)).

ويَحْلِف وقد آن أوانه من هذه الرسالة: ((وا لله ما غششتك بعد النصيحة، ولا انحرفت عنك بعد الصّاغية، ولا نصبْتُ لك بعد التشيُّع فيك...)).

ويطلب إقالته من عثرته بعد أن طالت نكبتُه: ((ومالك لا تمنع منّي قبل أن أُفترس، وتدركني ولّما أُمَزّق؟)).

ويذكر ابن زيدون ـ شاهداً على ولائه ـ تلك القصائد التي ذكر فيها أبا حزم بالثناء، وأثبت لنفسه فيها الولاء: ((وهل لبسَ الصباح إلا بُرداً طرزته بفضائلك، وتقلّدت الجوزاء إلا عقداً فصلتُه بمآثرك، واستملى الربيعُ إلا ثناءً ملأتُه من محاسنك؟))...

ويقدّم دليلاً آخر فيقول: إنه كان يستطيع مغادرة قرطبة إلى جهات كثيرة تستقبله، ولكنّه راغب في جواز ابن جهور، باقٍ على الولاء والوفاء ومَنْ كان كذلك كان جديراً بالاصطناع والتقريب.

ويُنهي ابن زيدون رسالته بقصيدةٍ تشفع النَّثْر بنَظم، وتجمع بين نوعي الأَدب، وتعرض من مواهبه الأدبية ما يلفت إليه النظر، ويدعو إلى المُجازاة الطيّبة بالرّضا والقَبُول.

المقامة في الأندلس

دخلت المقامات الأندلس في حينها، في أثناء الحركة الحياتية والثقافية المتبادلة بين الأندلس والمغرب من جهة والمشرق من جهة أُخرى. ووصول مقامات بديع الزمان إليهم لم يحفز على إنشاء مقامات مماثلة تجري على النهج الذي سارت عليه؛ وإن أنشؤوا مقامات مقاربة، أو استفادوا منها في نُصوصهم الأدبية، أو رسائلهم الفنّيّة[١].

والمقامات الباقية لمن قلّد البديع أو حاول مجاراة بعض خصائصه قليلة، وهي أَشبه بالرَّسائل منها بالمقامات لغياب عنصر الكُدية، وغياب عناصر الإِضحاك أو المفاجأة، وخلوّها من حيويّة مقامات بديع الزمان.

ومن هذه المقامات:

ـ مقامة أبي حفص عمر بن الشُّهَيد[٢]، وهو من شعراء المعتصم بن صمادح صاحب المَرِيّة. اختار ابن بسام قطعاً من مقامته.

ـ ومقامة أبي محمد بن مالك القرطبي[٣]، واختار ابن بسام قطعاً منها، وتدور حول مدح المعتصم بن صمادح ووصف انتصاراته، وتنتهي بطلب العطاء من الممدوح، فكأنها قصيدة مديح طويلة...

---

(١) تُنظر مطالعات د. شوقي ضيف، والدكتور إحسان عباس. وقد تابَعهما د. عبد الملك مُرتاض في (فَنّ المقامات في الأَدب العربي) ط٢ ـ الدار التونسية ـ ١٩٨٨

(٢) الذخيرة ١/٦٧٠. وله ترجمة في الجذوة ٢٨٣، والبغية ٣٩٤، والمغرب ٢/٢٠٩

(٣) الذخيرة ١/٧٣٩. وله ترجمة في القلائد: ١٧٠

ـ ومقامة لابن المعلم (محمد بن عبد العزيز) اختار ابن بسام منها، ويرجح أن تكون في المعتضد بن عباد، وهي تجري على النسق الذي وصفنا في الفقرة السابقة.

والتفت الأندلسيون ـ بعد مرحلة الهمذاني ـ إلى مقامات الحريري، وصاغوا على منوالها، وقلّدوها. وقد سمع عدد من الأندلسيين هذه المقامات من صاحبها الحريريّ، ونقلوها معهم إلى بلاد الأندلس، وهيّؤوا لها جوّاً لم يهيّأ مثله لمقامات الهمذاني. ومن أشهر هؤلاء أبو القاسم بن جهور الذي أقرأ مقامات الحريري لعدد كبير من الدارسين وطلبة العلم، وممّن سمعها أبو العبّاس الشّريشي[1] أخذها عن أبي بكر بن أزهر الحجري صهر أبي القاسم بن جَهْوَر، وعن أبي بكر بن مالك الفهري، وهو صهر آخر لابن جهور. وأخذها أيضاً عن عدد من الأدباء مثل ابن جُبير الرّحالة المعروف. وقد ألّف الشريشي شروحاً على المقامات الحريرية: الكبير، والأوسط، والأصغر.

ـ وقد شَرح مقامات الحريري في الأندلس أُدباء آخرون واهتموا بهذه المقامات رواية وشرحاً ومعارضة.

وممّن عارض مقامات الحريري أبو عبد الله بن أبي الخِصال في ديوان رسائله مقامة واحدة مطوّلة[2]، وتختلف عن مقامات الحريري[3] في طولها، ومبنى سنتها إلى أن يجزّب قلمه في وصف عدة مقامات فهناك منظر في الريف، وآخر في بيت الحارث بن همّام (راوية المقامة) ثم ثلاث قصائد متتابعة، ثم التفتيش عن أبي زيد السُّروجي (البطل) ثم وصف لإحدى الخانات وحوار طويل مع

---

(١) أبو العباس أحمد بن عبد المؤمن الشريشي (٥٥٧ ـ ٦١٩ هـ) أديب واسع المعرفة بعلوم اللغة، بارع في فنون النحو والشعر والأدب. أكثر من التأليف ولازم التدريس والتّعليم. وكان ناجحاً في تآليفه ومحاضراته معاً. ومن كتبه: شروحه الذائعة على المقامات الحريرية. وله شيء من الشّعر المطبوع. ولشرح الشريشي طبعات عديدة، أولها طبعة بولاق ١٢٨٤ هـ.

(٢) رسائل ابن أبي الخصال: ٤٢٠

(٣) تنظر مطالعة د. إحسان عباس ٢/٣١٧

صاحبها، ثم لقاء بين الحارث والسروجي فيه حوار طويل... ولا يلتزم هذا المنهج إلاّ كاتب لا يودّ أن ينشئ عدة مقامات متفرقة؛ وإنما هو ينشئ مقامة أو اثنتين، ويحاول أن يعرض براعته في رسم مناظر متعدّدة يجمعها معاً في مقامة واحدة.

فابن أبي الخصال احتفظ بشخصيّتي مقامات الحريري: وهما الحارث بن همّام، وأبو زيد السّروجي[١].

ـ تحدّث الحارث في أول المقامة عن جوّها وإطارها. فهو في منطقة من الرّيف، وقد ابتهجَ المُشتغلون في الأَرض بنزول المطر الغزير، وتوقُّع الموسم الوفير. وبينما كان الحارث مع أولئك الفلاّحين إذ برَز رجلٌ رفعَ صوتاً جهورياً لفت إليه الأَنظار وحثّهم على صلته وبرّه: قال

((أيُّها الجَمْعُ الأريض[٢]، والسُّؤدد العريض، والنفر البيض، والنائل المستفيض؛ والهمم السامية، والحفائظ الذّامية، والسيوف الماضية، والليوث الضارية؛ والقروم المصاعب والوشيج الزّاعب[٣].

حقّاً إنكم لقطب الرّجاء، ورحى الهَيْجاء، وكشفُ الغمّاء، وجَلا العمى والعَماء. أما والذي كلأكم، وأنبأ كلأكم[٤]، ملأ بالخَيْرات ملأكم؛ إن للنعم لَشُكراً هو أوسع غاية، وأرفع راية؛ وأرقّ أنفاساً، وأضفى لباساً؛ وأعلى مظاهر، وأزكى بواطن وظواهر؛ وأربح مسالك، وأنجَع مآلك[٥]؛ وأسرع قبولاً، وأبعد ذبولاً. كلاّ ليس الهِنَاءُ بالدّسّ[٦]، ولا النداء بالهمس؛ ورئمانُ العلوق غصّة في

---

(١) رسائل ابن أبي الخصال: ٤٢٣ ـ ٤٢٤

(٢) أَرض فلان: صار خيّراً متواضعاً، فهو أَريض.

(٣) الوشيج: شجر الرماح. زاعب رجل أو أرض تُنسب إليها الرّماح.

(٤) كلأ: رعا. والكلأ الثانية: عشب المَرْعى.

(٥) مآلك جمع مألكة: رسالة.

(٦) الدّسّ: عدم إتقان طلي الجمل الأجرب بالقطران.

الحُلوق[١] ؛ قد شكرتم قَوْلاً فاشكروا طَوْلاً؛ وأثنيتم لفظاً فاثنوا لدى البِرّ والصّلة لحظاً؛ وبادِرُوا بالحسناتِ قبل فَوْتها، وانظروا إلى رحمة الله كيف يحيي الأرض بعد مَوْتها. ألا واثِقٌ بالخَلف؟ ألا مُقْتَدٍ بالسَّلف، ألا يدٌ تطول؟ ألا حُرٌّ يَنُول؟ ألا مُعْطٍ من يسار؟ ألا مُوَاسٍ من قُصار؟ ألا مؤثرٌ من إقتار؟

يا ينابيع الندى، ومصابيح الهدى، ومفاتيح الجَدا...)). ثم ذكر الحارث زوجته وأولاده، وشكا للناس سوء حالهم، وكثرة احتياجهم... وهكذا تنفتح أكياس القوم وصررهم، وتتوالى عليه عطاياهم ودراهمهم.

((قال: فما زلتُ أرمقُه، وسهام العطاء تَرْشُقه، وأتوسّمه وتلك النوافل تتقسّمه، حتى تعلّقت عيني بخَلَلٍ إزاء خدّه، أذهله الطمع عن سدّه فأثبتّ عَيْنَه، وعرفْتُ مينَه[٢] !...)).

إذن اكتشف الحارث شخصية أبي زيد السّروجي المتخفّي الذي زعم المزاعم عن زوجته وأولاده ليستجدي عَواطف الناس، ويأخذ أموالهم بالكُدْيَة!..

وتسلل الحارث وراء ((الشيخ)) ثم تعارفا، وتناولا الطعام، ولم يقبل السروجي أن ينام عند الحارث ـ كأنه خشي أن يأخذ من ماله الذي جمعه ـ وفي الصّباح يفتقد الحارث صاحبه. ثم يعرف أنّه سجين: ارتهنه صاحب حانٍ بدينه، ثم يعرف الحارث موضع صاحبه من الجُبّ الذي سجن فيه فيخلّصه... ويقضيان وقتاً ممتعاً، ويطلب الحارث من السروجي أن يخلده في شيءٍ من شعره... وتنتهي المقامة بقطعة من الشعر لأبي زيد السُّروجي.

وعارض مقامات الحريري أيضاً: أبو الطاهر محمد بن يوسف بن عبد الله التميمي المازني، القرطبي، (السَّرَقُسطي، الإشْتَرْكُوبي): أصله من إشتركوبة وهو

---

(١) رئمان: محبة وعطف. العلوق، النفيس الذي يتعلق به القلب.

(٢) المين: الكذب.

حصن قرب تطيلة في شمال الأندلس، وولد بسَرَقُسْطة ونشأ بها، ثم سكن قرطبة فنُسب إليها أيضاً[١].

وكان أبو الطاهر أديباً، كاتباً، شاعراً، من علماء العربيّة في زمانه. ومن كتبه المطبوعة (المسلسل) وهو كتاب لغوي و (المقامات اللزوميّة).

ومقامات أبي الطاهر خَمْسُون مقامة. وقد التزم فيها مالا يَلْزَم، فعُرفت بالمقامات اللزوميّة. وهي مبنيّة على السَّجع: واللزوم فيها أن يلتزم في السَّجع حرفين اثنين بدلاً من حرف واحد كما هو مألوف. وربما التزم ثلاثة أحرف كالذي نجده في المقامة السّادسة عشرة. وسمّى الثامنة عشرة المدبّجة لأنه جعل الكلمات في كل سجعتين تتقابل في نهاياتها وتتعادل كقوله من أوّلها: ((قال: كنت في رَيّان الحداثة والشباب، ورَيْعان الدّماثة والخِباب؛ قد خلعتُ الرسنَ والعِذار، وقطعتُ النَّسَنَ والإعذار...))[٢]؛ والتزم في الثانية والثلاثين أن يختم سجعاتها بحرف الهمزة، وفي الثالثة والثلاثين أن يختم السجعات بحرف الباء... إلخ. وفي هذا شيء من التّعقيد، أو العُسر. ولكن سَجْعه في غير ذلك: ((تشيع فيه العذوبة والسهولة والقدرة على التفنّن في الوعظ والوصف ونسج الكلام))[٣].

والشخصيّتان الرئيسيّتان في مقاماته هما: السّائب بن تمّام والشيخ أبو حبيب. وهو عنده رجل سدوسيّ محتال أصْلُه من عُمان. وقد ينزل في مقاماته راوية اسْمُه المنذر بن حمام، ولا دخل له في أحداث المقامة، ولكنه ينقل المقامة عن السائب (وقد ورد في تسع مقامات).

وقد يشترك في المقامة فتيان هما ابنا الشيخ أبي حبيب: غريب وحبيب.

---

(١) انظر دراسةً عنه في: تاريخ النقد الأدبي في الأندلس ــ محمد رضوان الداية ــ الطبعة الثانية ٣٥٢.
وانظر في مقاماته أيضاً: عصر الطوائف والمرابطين: ٣١٧ والأندلس د. شوقي ضيف: ٥٢٢
(٢) المقامات (مصر): ٢٣١
(٣) الأندلس: ٥٢٤

وبنى السّرقسطي مقاماته (كالحريري) على عَرْض حيل مكد (شحاذ أدبي) كبير هو الشيخ أبو حبيب.

ومقامات السّرقسطي الخمسون: بَعْضُها حظي من المؤلف باسم جعله عنواناً لها، وبعضها جاءَ غُفْلاً من ذلك. وممّا سمّاه: السابعة (وهي البحرية) والثانية عشرة (وهي الفارسية) والسادسة عشرة (وهي المثلثة) أي التزم فيها ثلاثة أحرف، والسابعة عشرة (وهي المرصّعة)، والثامنة عشرة وهي المدبّجة (وسمّيت في إحدى النسخ المخطوطة: الموشّحة)... إلخ.

وقد أثنى د. ضيف على المقامات اللزومية، وقال فيها: إنها أروع آثار السّرقسطي، وإنّها من أروع ما قدّمت الأندلس للأدب العربي من أعمال أدبية[١].

وهذه مقامةٌ من مقامات أبي الطاهر، نقدمها تامّة ليظهر للقارئ صنيعته وأُسلوبه وثقافته الواسعة.

المقامة الثانية[*]

حَدَّثَ الْمُنْذِرُ بنُ حُمام، قال: حَدَّثَنا السَّائبُ بنُ تمام، قالَ: لَمَّا فارقتُ جُرْجانَ، أُريدُ أَرَّجانَ[٢] بَرَّحَ بي الشَّوقُ، وجَدَّ النِّزاعُ والتَّوْقُ، فَسِرْتُ أَسْتَصْحِبُ الرِّفَاقَ، وأَجُوبُ الآفاقَ، حَتَّى فارقتُ المأْهُولَ، وركبتُ الْمَجْهُول، وإذا أنا بِلُمَّةِ رِحالٍ[٣]، على نَجائبَ[٤] عِجَالٍ، يَخِبُّونَ[٥] في أرضٍ نَضِيَّةَ[٦]،

---

(١) الأندلس: ٥٢٢.

(*) المقامات اللزومية للسرقسطي (ط مصر): ١٦؛ (ط المغرب): ٢٥.

(٢) جرجان مدينة بين طبرستان وخراسان. وأَرَّجان: مدينة قريبة من شيراز والأهواز بفارس.

(٣) لُمّة: جماعة.

(٤) النجائب جمع النجيبة: الإبل الخفيفة السريعة.

(٥) يخبّون: من الخبب وهو نوع من السير السريع.

(٦) نضيّة: بعيدة.

وينطوُون على عزْمةٍ وطِيَّةٍ[١]، فعطَفُوا عليَّ الزِّمامَ، وبذلُوا التَّحيَّةَ والذِّمام[٢]، ثُمَّ قالُوا: ((مَنِ الرَّجُلُ الوَحِيدُ؟ وإلى أَيْنَ عَنِ الْمَهْيَعِ[٣] تَحِيدُ؟)) فقلتُ: ((مَنْ قَذَفَتْهُ المَسَارِبُ، ورمَتْ بهِ الْمَشارِقُ والمغارِبُ)). فقالوا: ((رُزِقْتَ الْمُنى، ووُقِيْتَ الْمَنى[٤]، ويُسِّرَ لَكَ الطَّرِيقُ، وبُشِّرَ بكَ المَعشَرُ والفريقُ، هَلْ لكَ عهدٌ بالعُذَيبِ والغَميمِ[٥]؟ وهل لاقَيْتَ حَيَّيْ أَسَدٍ وتَميمٍ؟ وهل مررتَ بالوَعساءِ[٦]، وعُجتَ على الأجارِعِ والأَحْسَاءِ[٧]؟)) فَقُلْتُ: ((وسَقَطَ السَّائلُ على الخَبيرِ[٨]، وأَتَاهُ بالقَبيلِ والدَّبيرِ[٩]، تَرَكْتُها والكلأُ جَميمٌ[١٠]، والنَّبْتُ عَمِيمٌ، مِن أرضٍ صَفَتْ مِنها المَشَارِعُ، وضفتِ[١١] الأباطحُ والأجارِعُ، فتضاحكَتِ الأزهارُ والأنوارُ، وتألَّفَ الفِزْرُ والصِّوَارُ[١٢]. وتصاحَبَ الآنِسُ والنُّوارُ[١٣]، وتغايرتِ الأنجادُ والأغوارُ. يالَهُ مِن مرتعٍ خَصيبٍ، وحظٌّ لِرائدِه مُصيبٍ، غيرَ أنَّ بها مِنْ أسدٍ وسُلَيْمٍ[١٤]، كُلَّ أَسدٍ وأَيِّمٍ[١٥]، فقد تقصَّدت عليها الذَّوابلُ[١٦]، وتفانَتِ

---

(١) الطيّة: النيّة.

(٢) الزمام: حبل الدابة تُقاد منه. والذّمام: العهد.

(٣) المَهْيَع: الطريق الواضح الواسع.

(٤) المَنى: القدر والموت.

(٥) العُذَيب: ماءٌ بين القادسية والمغيثة أو هو واد في بلاد بني تميم. والغميم موضع بين مكة والمدينة.

(٦) الوَعْساء: موضع (قال ياقوت: هو بين الثعلبية والخزيمية، وهي شقائق رمل متصلة) وهي التي ذكرها ذو الرّمة:

أيـا ظبيـة الوعسـاء بـين جلاجـلٍ وبـين النّقـا آأنـتِ أمْ أمُّ سـالمِ؟

(٧) الأجرعان: موضع باليمامة والأحساء مواضع كثيرة، ومنها مدينة مشهورة بالبحرين (شرق الجزيرة العربية).

(٨) في أمثال العرب: ((على الخبير سقطت)).

(٩) أي أتاه بظاهر الأمر وباطنه، وأصله من قبيل الفتل (باطنه) وظاهره: دبيره.

(١٠) جميم: مجتمع كثير.

(١١) ضفت: كثرت.

(١٢) الفِزْر: القطيع من الغنم، والصّوار: القطيع من البقر.

(١٣) النّوار: ما ينفر من الظباء والوحش.

(١٤) أسد وسليم: من القبائل العدنانية.

(١٥) الأيم: الحيّة.

(١٦) تقصّدت: تكسرت، والذّوابل: الرّماح.

القبائِلُ والقنابلُ[١] ، فجُدِّدتْ عليْها الذُّحُـولُ[٢] ، وهـانَتْ عِندَهـا الْمُحُـولُ[٣] ، وتأكَّدتِ الأحقادُ، وتأبَّدتِ الأحْقاف[٤] ، والأعْقادُ؛ وأُذِيـلَ عَليها المَصُـونُ[٥] ، واتُّخذتِ الصَّياصي[٦] والحُصُونُ، ففارقَتْ تَميمُ حِماهَـا، ورَماهـا بالصَّغـارِ مَـن رَماها. فتميَّزَ مِنهم فَتًى يرفُلُ مِنْ همَّتِهِ في كَرَمٍ[٧] ، ويَأْوِي مِن بَأْسِهِ إلَـى حَـرَمٍ، فهلَّـلَ وكَبَّرَ، وأقبـلَ وأدبَـرَ، وقـال: لأُمِّ الرَّائـدِ الهَبَـلِ[٨] ، ولا جـادَ القَطْـرُ ولا السَّبَلُ[٩] ، أ للهِ إنَّ الفَوْزَ لأسـدٍ، ومـا القَـومُ مِـنْ لِيْـفٍ ولا مسَـدٍ. لقـد أهدَيـتَ العَجبَ العَجيبَ، وبَعَثتَ الشَّجنَ والوَجيبَ. لقد أتَى الزَّمانُ بعَجَبه، وأطلعهُ قبلَ رَجَبِهِ[١٠] ، فعوَّضَ مِنَ الرَّأْسِ بالرِّجلِ، ومِنَ التَّاجِ بالحِجْلِ[١١] ، وغَلَّـبَ الوشـيظَ على الصَّميمِ[١٢] ، والحَميدَ على الذَّميمِ، والجُعَ عَلى الزَّمِيعِ[١٣] ، والفذَّ[١٤] علـى الْجَمِيـعِ، والتَّـوالي عَلى الهَـوادِي[١٥] ، والعَيْرَ[١٦] علـى الجَـوادِ، والفِـدانَ علـى البَاسِلِ[١٧] ، والنَّابحَ على العَاسِلِ[١٨] ، والأنزل على الطَّامحِ[١٩] ، والأعْزلَ علـى

(١) الطّائفة من الناس والخيل.
(٢) الذحول جمع الذحل: الثأر.
(٣) المحول جمع المَحْل.
(٤) الأحقاف: مكان، وأصله جمع حقف: ما اعوجّ من الرمل. وتأبّدت: توحّشت. والأعقاد جمع العقد: المتراكم من الرمل.
(٥) أُذيل: امتهن.
(٦) الصّياصي بمعنى الحصون.
(٧) أصله من رَفَل في ثوبه جرّه (لطوله) وفي الكلام استعارة.
(٨) الرائد: الذي يسبق القوم لمعرفة الطريق. والهَبَل: التكل.
(٩) السَّبَل: المطر.
(١٠) إشارة إلى المثل: عش رجباً تر عجباً.
(١١) الحجل: الخلخال.
(١٢) الوشيظ: الدخيل، والصميم: الأصيل.
(١٣) الجُع: الأحمق، والزميع: الشجاع المقدام.
(١٤) الفذ: الفرد.
(١٥) التوالي: الأعجاز والهوادي: الأعناق. والعرب تقول: ليس هوادي الخيل كالتّوالي.
(١٦) العير: الحمار.
(١٧) الفدان: الثور. والباسل: الأسد.
(١٨) العاسل: الذئب.
(١٩) الأنزل: المنخفض. والطّامح: العالي.

الرَّامحِ[١]، وابْنَ اللَّبُونِ[٢] على العَوْدِ، والسَّبَلَ عَلى الجَودِ[٣]، والشَّاحِجَ عَلى الصَّاهِلِ[٤]، والطَّامِيَ عَلى النَّاهِلِ[٥]، وفاضَلَ النَّبعَ بالغَرَبِ[٦]، والعَجمَ بالعَرَبِ.

فانبرى سيِّدُ القَوْمِ، فَقالَ: لقد ثنَيتَ العَزائِمَ، ونَبَّهتَ النَّوائِمَ، وأبَنْتَ الأحْياءَ، وذَمَرْتَ القَبائِلَ والأحْياءَ[٧]. ثُمَّ أشارَ إلى شيخٍ كالعُرجُونِ[٨]، يمزُجُ صَفواً بأُجُونٍ[٩]، ووَقاراً بمَجُونٍ، فقالَ: وأنتَ يا أخا اللَّسَنِ، والبيانِ الحَسَنِ، فما رَأْيُكَ وقد طرحتنا الطَّوارِحُ، فيما جرَتْ بهِ السَّوانِحُ والبوارِحُ؟ فقالَ: أرَى أن تُحْمِلَني جواداً، وترقبَ مِنِّي عِوَاداً، وتَقدحني وارِياً، وترسِلَني سَارِياً، وأنتابُ القومَ، وأُطيلُ الحومَ، وأتخَلَّلُ القَبَائِلَ والشُّعُوبَ، وأستَخْبِرُ الصَّادِحَ والنَّعُوبَ، وآتيكَ بالخَبرِ مِنْ فَصِّهِ[١٠]، وبالحَديثِ على نَصِّهِ، وأُوشِكُ نحوَكُمْ إياباً، ولا أُطيلُ عنكُم غِياباً، فَتعلَمُ أينَ استَقَلَّت بعشائرِكَ المَنازِلُ، وعَمَّا انقلَبَ العدوُّ المُنازِلُ، فقالَ: إنَّ الرَّأْيَ رَأْيُكَ، وإن شاقَنا بُعدُكَ ونَأْيُكَ. قالَ: فامتَطَى اليَعْبُوبَ[١١]، ونَضَى الجُيُوبَ، وتَقَلَّدَ الحُسَامَ، وتَوَفَّرَ الجِسَامَ، وملأ المَزادَ، واحتقَبَ الزَّادَ[١٢]، وقالَ: أستَودِعُ اللهَ مِنْكُم كِرَاماً، وأسأَلُهُ أن يُيَسِّرَهُ مَرَاماً.

فَتَبِعْتُهُ مُوَادِعاً، وحَسِبْتُهُ مُخادِعاً، فَأرَابَهُ مِنِّي مُرِيبٌ، وقالَ: حَنانَيْكَ يا غَرِيبُ! وأنْشَدَ:

---

(١) الرامح: ذو الرمح، وفي الكلام تورية بأسماء النجوم.

(٢) ابن اللبون من الإبل: الفتيّ. والعود: المسنّ.

(٣) السَّبل: المطر والجود الكثير منه.

(٤) الصَّاهل: الحصان، والشاحج: الحمار.

(٥) الناهل: الذي ارتوى.

(٦) النبع: شجر تتخذ منه السهام والقسي. والغرب: شجر أضعف منه.

(٧) ذمره: حضّه وشجّعه.

(٨) العُرجون: عذق النخلة إذا يبس واعوجّ.

(٩) الأجون: الماء المتغيّر الطعم واللون.

(١٠) أي من أصله. وفي أمثال العرب: يأتيك بالأمر من فصّه.

(١١) اليعبوب: اسم فرس مشهور، وهو في الأصل الطويل السريع.

(١٢) ملأ حقيبته.

أمَـا تَـرَى الآلَ والسَّـرابَا   والدَّهْـرَ بِـالحُرِّ قَـدْ أرَابَـا
إذا أرَاكَ الزَّمَـانُ وَجْهـاً   فَسِرْ عَلَى وَجهِكَ انْسِرابا
ولا تُبَـلْ عَـنْ مَـلام قَـوْمٍ   قَدْ أرْسَلُوا نَحْوَكَ الجِرابـا
وَلا تَكُـنْ عَـاجِزَ المَسَـاعِي   وامْـلأ إذَا أمْكَنَ الْجرابـا
وَرِدْ بِمَـاءِ غَدِيـرَ خُـمٍّ   تَسْتَعْذِبِ المَـاءَ والشَّـرَابَا
وَكُـنْ بأنْبَائِهـا عَليمـاً   واتَّـقِ بِهَـا الذِّئْـبَ والغُرَابَـا
ولا تَهَـبْ مِنْهُـمُ جُمرعـاً   واغْـنَ بِهَـا بَلْقَعـاً خَرابـا
كُـلٌّ عَلَـى ظَهْرِهَـا غَريـبٌ   فَكَيْـفَ تَشْـكُو بِهـا اغْتِرَابَـا؟
وَكُـلُّ مَـا فَوْقَهـا تُـرابٌ   فَمَـا لَنـا نُمْسِكُ التُّرابـا؟

فَقُلْتُ: ((الشَّيْخُ، واللهِ، أبو حَبيبٍ، ومَنْ لكَ بذلِكَ التَّشْبيبِ أو التَّسْبيبِ؟ وكَما راجَعْتَكَ الفُتُوَّةُ، هَلاَّ عَاوَدَتكَ المُروَّةُ، لَشَدَّ مَا دَارَيْتَ النُّصُولَ[1]، وَازْدَرَيْتَ الذَّوَابِلَ والنُّصُولَ[2]، فمضَى عَنِّي وَهُوَ يَقُولُ:

هَيهَـاتَ مِنـكَ عَـوادِي   والدَّهْـرُ جَـمُّ العَـوادِي
وَذُو الحَزَامَـةِ غَـادٍ   بِكُـلِّ شِـعْبٍ وَوَادِي
والمَـرْءُ بَيْـنَ سَـبِيلَيْ   رَوائِـحٍ وَغَـوَادِي
وَلِلْعَوَاقِـبِ يَومـاً   ظَواهِـرٌ وَبَـوَادِ
قُـلْ لِلْعِراقَيْـنِ عَنِّـي   وَقُـلْ لأهْـلِ السَّـوَادِ:
مَـا لِلْحَواضِـرِ تُغْـرِي   بِكَيْـدِ أهْـلِ البَـوَادِي
للهِ أبيـضُ حـرٌّ   خدعتُـه بِسـوادِ
وَرُبَّ سَـمْحٍ جَـوَادٍ   رَزَأْتُـهُ بِجَـوَادِ

(١) نصل الشعر: زال عنه خضابه.
(٢) الذَّوابل: الرِّماح، والنُّصول: السُّيوف.

كَـم ضَـرَّ قُـرْبُ وِسَـادٍ وَغَـرَّ طُـولُ سِـوَادِ[١]
هَـل يَمْنَـحُ الدَّهْـرُ يَومـاً رِيَّ النُّفُـوسِ الصَّـوادي؟
فَقَـد أطَـالَت إليـهِ شَـكوَى الجَـوَى والجَـوَادِ

ـ وقد ظهر عدد من المقامات في الأعصر التالية في الأندلس ((وليس فيها ما يشيرُ إلى تطوّر ما في طبيعة المقامة، أو موضوعها))[٢] . فمن ذلك مقامات لسان الدين بن الخَطيب، وتَدُور في الأكثر على الرّحلات ووصف البُلدان. وقد درسها د. ضيف في الرّحلات لفقد كثيرٍ من خَصائص المقامات منها. ومعلوم أنّ في المقامات نوع يخلو من الراوي والبطل، كمقامات الزمخشري التي تدور كلها على الوعظ[٣] .

---

(١) السّواد: المسارّة، وفي أمثال العرب: ((قُرب الوساد وطول السّواد))، وله قصة انظرها في أمثال الميداني.

(٢) عصر الطوائف والمرابطين: ٣٢٦

(٣) المقامة ـ د. ضيف ـ ص: ٨١